

كتاب التزكية الإيمانية والأخلاقية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) سورة الجمعة: 2.



المبحث الأول: الإخلاص

المبحث الثاني: محبة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم

المبحث الثالث: حسن الظن بالله تعالى

المبحث الرابع: التوكل على الله تعالى

المبحث الخامس: الخوف والرجاء

المبحث السادس: الشكر

المبحث السابع: الصبر

المبحث الثامن: الرضا والقناعة

المبحث التاسع: الزهد والورع

المبحث العاشر: التقوى والاستقامة

المبحث الحادي عشر: المحاسبة والمراقبة

المبحث الثاني عشر: التوبة

المبحث الثالث عشر: الأخذ بالعزائم والرخص

المبحث الرابع عشر: تجنب الحقد والحسد

المبحث الخامس عشر: تجنب الكبر واتباع الهوى

المبحث السادس عشر: علو الهمة.



عدد الساعات: 16 ساعة



تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد :

فإن مفهوم التزكية، مفهوم شامل، يتناول تطهير النفس من أدران الشرك والجاهلية والعقائد الفاسدة، من خلال الإيمان بالله ورسوله، ويتناول تطهير النفس من الضلال والانحراف، من خلال اتباع الشرع الحنيف، والتزام ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ويتناول أيضاً تطهير القلب من الأمراض التي تعتريه كالحسد والحقد والكبر والغل .. من خلال التزام منهج القرآن والسنة، الذي حدد لنا طريقاً واضحاً من اتبعه تهذبت روحه وسمت نفسه، وصار في عداد الصالحين المصلحين، الذين يحبهم الله ورسوله، ويحبهم الناس، ويذكرونهم بكل خير.

لقد بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، ويربي الناس على مدارج الكمال، ويسمو بالإنسانية إلى أعلى درجات السمو الفكري والعقلي والروحي والنفسي، فأخرج من أجلاف العرب أمة شهد لها القرآن بأنها خير أمة أخرجت لها الناس، وشهد لها المنصفون بأن التاريخ لم يشهد أرحم ولا أعدل منها، وشهد لها الأعداء بأنها أمة ملأت الكون رحمةً وعدلاً وحضارة. وما كان للعرب أن يصلوا إلى مثل هذا الرقي الحضاري، لولا أخلاق الإسلام، وفضائل الإيمان.

وحين نتداعى إلى العودة لهذا المنهج، والأخذ به والسير عليه، فإنما نتداعى إلى ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، وراحة القلوب وطمأنينتها، وتخلصها من الشقاء والقلق، وشفائها من العذاب الذي أتت به حضارة الغرب المادية، التي اهتمت بالجسد وأهملت الروح.

إن الإسلام بشموله قد أعطانا الغذاء والدواء لكل من الروح والجسد والفكر والعقل، ليكون الإنسان متوازناً في نظرته إلى الدنيا والآخرة، متوافقاً في جمعه بين مطالب الروح ومطالب الجسد، معتدلاً في تقديره للأمور، وتعامله مع الكون، وبذلك نجد تعاليم الإسلام تصوغ الشخصية المسلمة التي تتعامل مع كل شيء في هذا الكون من خلال نظرة صحيحة دقيقة، تتسم بالرفق والرحمة والإنصاف، وتعتمد على الحب والاحترام والإحسان.

وفي هذا الفصل تم اختيار مجموعة من دروس التزكية الإيمانية، لتقديمها لقرائنا وطلبتنا الأعزاء، عسى أن تكون خطوة في الاتجاه الصحيح، ووسيلة لغاية عظيمة هي تحقيق التزكية الإيمانية، وصياغة الشخصية الإسلامية على المنهج الصحيح، والصراط المستقيم.

والله نسأل أن يتقبل هذا الجهد ويجزي عليه، وأن يسامح ويعفو عما فيه من خلل وتقصير.



الأهداف :

- 1- يتبتل لله و يتقطع عن هوى النفس بالإخلاص التام لله تعالى.
- 2- يجعل (تزكية النفس) في مقدّمة تطلّعاته ، وفي قمّة أهدافه.
- 3- يراقب نفسه مراقبة شديدة وواعية بما يعصمه من الزلال.
- 4- يجعل خوف الله وتقواه ورجاءه شغله الدائم
- 5- الفرار إلى الله والالتجاء إليه في كل الملمات.
- 6- أن يحذر من التواكل ويجعل التوكل شعاره
- 7- أن يحرص على فعل ما يقوي به الإيمانه من محاسبة ومراقبة لله.
- 8- الحذر من الاخذ بالرخص
- 9- الحذر من التمنيّات والأحلام واتباع الهوى

مِنَّا وَمِنَ الْجَنَّةِ
الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَاتِهِ



المبحث الأول: الإخلاص

الإخلاص في لغة العرب: مصدر يرجع إلى الجذر الثلاثي (خ ل ص). يقال: خلص الشيء إذا كان خالصاً ليس فيه شائبة، وقد وصف الله سبحانه خروج اللبن من بطون الأنعام بقوله: *انسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين* [سورة النحل]. فهذا اللبن الخالص يخرج من بين الفرث والدم غير مختلط بأي منهما، فهو خالص صافٍ، ولو اختلط بشيء ما شربه الناس ولا قبلوه. والعمل الصالح يجب أن يكون خالصاً لوجه الله سبحانه ليس فيه شائبة من شرك أو رياء حتى يقبله الله تعالى ويثيب عليه.

مفهوم الإخلاص: يعني تصحيح القصد والنية، وترك كل مقصد يخالط مقصد التوجه إلى الله سبحانه. وفي القرآن الكريم سورة سميت بسورة الإخلاص. وقد أخبر عنها الرسول بأنها تعدل ثلث القرآن؛ إنها سورة: قل هو الله أحد. وإنما سميت بسورة الإخلاص لأنها تضمنت وصف الله سبحانه بصفات الكمال فهو الأحد الصمد - أي المقصود بالحوائج فلا يستعين المسلم إلا به، ولا يقصد سواه، وهو الله المنزه عن الولد والوالد، وعن المثيل والشبيه.

وقد أمر الله سبحانه بالإخلاص في عبادته، وصدق القلب في التوجه إليه، فقال مخاطباً نبيه: *لقل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين، قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، قل الله أعبد مخلصاً له ديني* [سورة الزمر]

وإخلاص الدين لله سبحانه إنما يكون بأن يتوجه المسلم إلى الله طالباً رحمته ورضاه، مقبلاً عليه، عاملاً بما يرضيه مجتنباً ما يغضبه، دون أن يكون عنده مقصد آخر إلا رضا الله سبحانه.

سر الإخلاص

الإخلاص سر بين العبد وربه تعالى، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، والناس لا يستطيعون أن يحكموا على شخص ما بأنه مخلص أو غير مخلص، لأنهم لم يطلعوا على ما في قلبه، ولا عرفوا ما في نفسه. فالمصلي حين يقف في صلاته ويؤدي أركانها وسننها، يقوم بمجموعة من الحركات والأفعال، والناس يرون أنه قد أدى الصلاة، ولكن ليس منهم أحد يدري هل قبلت تلك الصلاة أم لا، لأن قبول الأعمال بيد الله سبحانه، وهو العليم بما في قلب هذا المصلي، يعلم إن كان صلى ابتغاء وجه الله، أم صلى رياء الناس، ورغبة في جلب انتباههم. ولذلك كان أفضل العبادات وأكثرها أجراً، وأجدرها بالقبول عند الله سبحانه ما كان بعيداً عن شوائب الرياء، خالصاً من رقابة الناس وإطلاعهم، كقيام الليل، فإن المرء إذا قام من الليل فتوضأ ووقف بين يدي ربه يصلي وقرأ القرآن ويدعو كان جديراً بأن يقبل الله منه، لأنه لم يصل ليراه الناس، بل صلى ابتغاء وجه الله سبحانه. والبكاء من خشية الله عمل صالح، إذا فعله العبد أمام الناس، يُخشى أن يدخله الرياء، لكن إذا فعله العبد خالياً بعيداً عن الناس كان خالصاً لوجه الله تعالى، وجديراً بأن ينال ثوابه العظيم كما جاء في الحديث الشريف: *[سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه]* (1).

والصوم عمل صالح، وهو من الأعمال التي لا يستطيع الناس أن يطلعوا عليها ويراقبوا الصائم، فهم ليسوا معه كل الوقت، ويمكنه إذا خلا بنفسه أن يأكل ويشرب ما شاء، ثم يلقي الناس فلا يدرون ما فعل، ويظنون صائماً، ولذلك قال الله سبحانه في الحديث القدسي: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته لأجلي (2)

فالصيام سر بين العبد وربّه سبحانه، ولذلك استحق أن يكون ثوابه وأجره على الله سبحانه.

الأمر التي عليها مدار العمل

هناك أمران يتوقف عليهما قبول العمل، هما: الإخلاص والصواب.

فلا بد للعبد أن يخلص في عمله، إن أراد أن يكون مقبولاً، ولا بد أيضاً أن يعمل العمل على وجهه الصحيح كما شرعه الله تعالى، فليس لأحد أن يصلي الظهر خمس ركعات مثلاً ويقول: صليتها هكذا مخلصاً لوجه الله، فمثل هذا يكون قد خالف أمر الله سبحانه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تقبل صلاته، لأنها غير صحيحة.

حياة المسلم كلها لله

كلمة مسلم تدل في أصلها على الإخلاص، لأن المسلم من أسلم أمره لله سبحانه، وجعل رغباته وهواه وحبّه وبغضه وعطاءه ومنعه.. لله تعالى. لقل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين [سورة الأنعام/

وفي الحديث أن رسول الله قال: "وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ" (3)

وقال: "من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله ، فقد استكمل إيمانه" (4)

الرياء

ويقابل الإخلاص: الرياء، وهو أن يعمل المرء عملاً ليراه الناس، أو يخبر الناس بأنه فعل هذا الفعل، رغبة منه في الحظوة عندهم، وأن يحمده ويثنوا عليه. وقد حذر القرآن من الرياء أشد التحذير، وبين أنه محبط للعمل، مضيع لثوابه، قال تعالى: [والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً] سورة النساء / كما حذر منه النبي فقال: " إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمله لله أحداً ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك" (5)

وقال أيضاً: " إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت

(2) رواه البخاري برقم 5927

(3) رواه البخاري برقم: 16 و مسلم برقم 43

(4) رواه الترمذي برقم 2521 وقال حديث حسن

(5) رواه الترمذي برقم 3154 وقال حديث حسن.

فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار. ورجل وسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل. ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه ثم ألقى في النار." (6)

وهناك آفات أخرى - غير الرياء - تدخل على العمل فتفسده وتبعده عن أن يكون خالصاً لوجه الله، منها أن يقصد المرء بعمله كسب الدنيا، وتحصيل بعض متعها، وقد أشار النبي إلى ذلك وحذر منه في أحاديث كثيرة، منها قوله: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته لله ورسوله، فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" (7).

فهذا الحديث يدل على أن من هاجر لتجارة أو زواج أو أي مكسب دنيوي، لم يُكْتَبَ له أجر الهجرة كما كتب للمهاجرين. لأنه لم ينو أن يهاجر ابتغاء وجه الله، واستجابة لأمره، بل هاجر لشيء آخر. وقال: "من نَعَلَّمَ علماً مما يُبْتَغَى به وجه الله تعالى، لا يتعلَّمه إلا ليُصِيبَ عرضاً من الدنيا لم يجدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يوم القيامة" (8) [وعَرَفَ الْجَنَّةَ: ريحها].

فهذا الإنسان لم يجد ريح الجنة لأنه تعلم العلم فلم ينو به وجه الله تعالى، بل كان همه أن يكسب المال ويجمع الحطام، ويصيب الدنيا، فاستحق أن يحرم من ريح الجنة، وأن يمنع من دخولها. مما تقدم يتبين أن المسلم مطلوب منه أن يخلص لله سبحانه في كل عمل يعمل، وأن يطلب بذلك العمل رضا الله سبحانه، فإذا أكل أو شرب أو نام نوى بذلك التقوي على طاعة الله، وإذا لبس ثوباً، نوى ستر عورته وإظهار نعمة الله عليه، وإذا كسب المال نوى أن ينفق على نفسه وأهله وأن يتصدق على المحتاجين، وإذا تكلم مع الناس نوى أن يكون كلامه في نصيحتهم ودعوتهم إلى الخير. وهكذا يمكن للمسلم أن يجعل كل أعماله لوجه الله تعالى، وأن ينال عليها الأجر العظيم والثواب الكريم.

(6) رواه مسلم برقم 1905

(7) رواه البخاري برقم 1 ومسلم برقم 1907.

(8) رواه أبو داود برقم 3664

المبحث الثاني: محبة الله ورسوله

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذه المحبة العظيمة: "هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص الآملون. وإلى أملها شمر السابقون، وبروح نسيمها تروح العابدون، وهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرّمها فهو في جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معرفة محبوبهم أوفر نصيب"

مفهوم المحبة:

حب العبد لربه: هو السعي لنيل رضاه، وطلب الزلفى لديه، بأداء الطاعات، واجتتاب المحرمات. وحب المسلم لنبيه (ص) هو إيمانه برسالته، والتزامه بمنهجه، وولاؤه لأهل بيته الطاهرين، واقتداؤه بأصحابه المتقين.

إن محبة الله ورسوله تعني أن تعبد الله حق العباداة، متبعاً لمنهج رسول الله ﷺ. وأن تقدم حب الله ورسوله على ما تحبه نفسك من الشهوات والمرغوبات. وأن تبدل نفسك في سبيل دين الله وكتابه وسنة نبيه، وأن يكون همك الذي يشغلك في الليل والنهار وفي الصباح والمساء: كيف أرضي الله ورسوله؟ وكيف أنصر دين الله وكتابه وسنة نبيه؟ وكيف أقدم خدمة للإسلام؟ فإذا وصلت إلى هذه الدرجة من التفكير والانشغال بحب الله ورسوله فقد بلغت درجة المحبة وصرت من أهلها.

قال رسول الله (ص): "المرء مع من أحب". (9)

وإن من اتبع الرسول (ص) فقد أحب الله تعالى، وأحبه الله تعالى، ومن خالف الرسول (ص) فقد عادى الله تعالى، وعاداه الله تعالى:

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. (آل عمران/31)
حين يصدق المسلم في حبه لله تعالى ورسوله (ص) فإنه يتحرر به من ضغوط المادة، ودوافع الغريزة، وألوان الوهن والضعف البشري، وتتنظم حياته وفق قيم سماوية وموازين علوية. فتطمح نفسه إلى العيش الأبدي في جنات الخلد، وتسمو أهدافه على متاع الدنيا وحطامها.
فحب المسلم لله ولرسوله حب يجعله يعيش سعادة حقيقية، ولو قست عليه الدنيا وتكاثرت عليه الشدائد وأحاطت به الأهوال.

كيف يكون العبد محبوباً

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} سورة آل عمران/31.

اقرأ هذه الآية الكريمة واستخرج منها كيف يمكن للمسلم أن يكون محبوباً عند الله سبحانه.

محبة الله ورسوله ﷺ وعلاقتها بالإيمان:

محبة الله ورسوله ﷺ ليست دعوى يدعيها الإنسان ولا أمنية يتمناها، بل هي حقيقة لها أدلتها التي تدل عليها وعلاماتها التي تظهر في أعمال وسلوك صاحبها، وقد أخبر الرسول ﷺ عن هذه العلامات فقال:

(ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار.) (10)

وقال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. (11) فإذا أردت أن تعرف صدقك في حب الله ورسوله، فاعرض نفسك على هذه العلامات:

هل تحب الله ورسوله ﷺ أكثر من الأبناء والزوجة والأهل والعشيرة؟ وأكثر من المال والطعام والشراب؟ وأكثر من النوم والراحة؟ وإذا سمعت المنادي ينادي للصلاة، هل تبقى مستمراً في عملك أو جالساً مع أهلك وأصدقائك، أم تبادر إلى إجابة النداء والسعي لرضا الله سبحانه؟

وإذا أحببت أحداً من الناس فانظر في الباعث على محبة هذا الإنسان: هل تحبه لأنه قريب؟ أم لأن بينك وبينه علاقة أو مصلحة؟ أم أنك تحبه لأنه من أهل الصلاح والتقوى؟ ولأنك ترجو أن تحشر معه في عداد الصالحين يوم القيامة؟

وقد يكون الإنسان عاش مدة من زمانه حياة بعيدة عن حقيقة الإيمان والالتزام، ثم أكرمه الله تعالى بالتوبة والعمل الصالح، فعليه أن يشكر نعمة الله عليه أن هداه للإيمان، وأن لا يشتاق إلى تلك الأيام التي كان فيها يفعل المحرمات والمنكرات، بل إذا ذكر تلك الأيام أو مرت بخاطره أن يستشعر الندم عليها، والخجل من نفسه كيف كان يرضى لنفسه مثل تلك الأعمال، وأن يكره تلك الأعمال السيئة كما يكره أن يلقى في النار، وأن يسأل الله سبحانه أن يفر له ما كان. إذا عرضت نفسك على هذه العلامات ووجدت أنك تحب الله ورسوله ﷺ، وتقدم حبهما على كل شيء فأنت بإذن الله تعالى من الصالحين الذين يحبهم الله سبحانه ويرضى عنهم ويدخلهم الجنة.

الأسباب المعينة على محبة الله ورسوله ﷺ:

هناك أسباب يقوي بها المسلم حبه لله ولرسوله ﷺ، ويزيدها ويثبتها في قلبه، ومن هذه الأسباب:

• قراءة القرآن بتدبر مع الفهم لمعانيه، فالقرآن كلام الله تعالى، والله سبحانه يحب أن نقرأ كلامه ونتدبره، ويعطينا على ذلك الأجر العظيم، لأننا كلما تزودنا من قراءة القرآن عرفنا الله سبحانه وصفاته وعظمته فازداد في قلوبنا حبه وخشيته. ولهذا فإن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ استجلب محبة الله بتلاوة سورة الإخلاص، فظل يردد في صلواته، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: إنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأها، فقال النبي ﷺ: فأخبروه أن الله يحبه. (12)

• التقرب إلى الله تعالى بالواجبات والفرائض، واجتتاب ما نهى الله ورسوله عنه. وفي هذا يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه".

(10) رواه البخاري 10-9/1 ومسلم 66/1.

(11) رواه البخاري 9/1.

(12) رواه البخاري برقم 15

• التقرب إلى الله سبحانه بالنوافل، والاستكثار منها مع إتقان أدائها، وفي هذا يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. (13) فمن استكثر من التقرب إلى الله تعالى بالنوافل أحبه الله تعالى وكان معه في جميع أحواله ونصره وأعانته ووفقه لكل خير.

• دوام ذكر الله جل وعلا على كل حالٍ ذكرٌ باللسان والقلب والعمل، فرينا جل وعلا يقول: ﴿فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، ونبينا ﷺ يقول: إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفاته)) (14). ويقول المصطفى ﷺ وهو سيد الذاكرين: سبق المفردون. قالوا: يا رسول الله، ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات. (15)

• أن يطالع القلب أسماء الله وصفاته، وأن يشاهدها ويعرفها، فمن عرف الله جل وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله التي أثبتها الوحي أحبه الله تعالى وأكرمه وأرضاه. وهذه نماذج للأسماء الحسنى ودلالاتها وأثرها على النفس وثمرتها:

الاسم	دلالاته	أثره على النفس	ثمرته
الرقيب	يعلم سري وعلايتي	أراقب الله تعالى وأخشاه	استقامة والتزام وحب الله تعالى
الرزاق	يرزقي ويرزق الخلق	لا أخضع للناس من أجل الرزق ولا أحمل هم الرزق فهو مضمون	الرضا بما قسم الله، واليقين بأن رزقي سيأتي، ولن يحرمني منه أحد من الناس
الغفور	يغفر الذنوب والخطايا، وإن عظمت.	استغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها، وعدم اليأس من رحمة الله تعالى.	حب الله تعالى، والحرص على التقرب إليه بالاستغفار
الرحمن	رحمته بالعباد.	أعرض لرحمة الله بعمل الصالحات واجتناب المحرمات	أن يكون المسلم رحيماً بالناس، وخاصة الضعفاء.

اذكر أسماء أخرى بنفس الطريقة السابقة.

الاسم	دلالاته	أثره على النفس	ثمرته

• مشاهدة بر الله جل وعلا بعباده، وإحسانه إليهم، والتعرف على آلائه ونعمه الظاهرة والباطنة، فإنها داعية إلى محبته سبحانه. فالإنعام والبر واللفظ معان تسترق مشاعر الإنسان، وتستولي على أحاسيسه، وتدفعه إلى محبة

(13) رواه البخاري برقم 6502

(14) صححه الألباني برقم 1906.

(15) رواه البخاري برقم 2676.

من يسدي إليه النعمة، ويوصل إليه المعروف، ولا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله. فالمحبوب والمستحق للمحبة كلها هو الله سبحانه، وأما غيره فمحبوب فيه عز وجل، والإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه وأعانته على جميع أغراضه وأهدافه.

• انكسار القلب لله والتذلل له سبحانه، والخشوع لعظمته، والله سبحانه يحب الخاشعين المتذللين له ويشني عليهم فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 1، 2]، ويقول عن خير العباد: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90].

تحين وقت النزول الإلهي لمناجاته جل وعلا وتلاوة كلامه، والتأدب بآداب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة النصوح إليه سبحانه. فقد أخبر النبي أن كل ليلة فيها ساعة استجابة، كما قال في الحديث الشريف: (ينادي منادي كل ليلة: هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه) (16)

• محبة الصالحين والسعي إلى القرب منهم ومجالستهم، فرسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين في، وجبت محبتي للمتجالسين في، وجبت محبتي للمتزاورين في. وفي حديث صحيح عن النبي ﷺ: من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان.

• البعد عن كل سبب وطريق يحول بين القلب وبين الله جل وعلا، وذلك لا يتحقق ولا يكون إلا ببعد المسلمين والمؤمنين وبعد مجتمعاتهم عن أنواع السيئات والمعاصي والمحرمات.

إن إدراك محبة الله للعبد منزلة عظيمة ونعمة جليلة وسعادة أبدية وحياة طيبة زكية، فعلى العبد الموفق السعي لنيلها بكل طريق مستقيم وهدى قويم، ليكون من أولياء الله الذين قال فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: 62، 63].

ثمرات محبة العبد لله ورسوله ﷺ

محبة الله ورسوله لها ثمرات طيبة يقطفها المحب في الدنيا وفي الآخرة، أما الثمرات التي في الدنيا فمنها:

• أن يحبه الله تعالى ويرضى عنه، ويكتب له القبول بين الناس. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنه يحبهم ويحبونه، وبأنه رضي عنهم ورضوا عنه. قال تعالى: " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" سورة المائدة/ وقال تعالى: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه" سورة البينة/7 و8.

• أن يعيش المحب في راحة وطمأنينة وسعادة.

• أن يعيش ذاكراً لله سبحانه وهذا الذكر يؤدي إلى طمأنينة القلب وراحة النفس والرضا والقناعة.

• أن يعيش ملتزماً بطاعة الله ورسوله بعيداً عن المعاصي والذنوب، فيسلم له دينه، ويحافظ على صحته من الأمراض التي تصيب العصاة بفسقهم وفجورهم، ويحافظ على وقته فلا ينفقه إلا في خير.

• أن يكون مبادراً إلى عمل الخيرات وترك المنكرات والدعوة إلى الله سبحانه والإحسان إلى الناس والسعي في قضاء حوائجهم وإعانتهم، فيحبه الناس من قلوبهم، ويعيش حميداً مرضياً.

أما الثمرات التي يقطفها المحب في الآخرة فمنها:

- أن يحشر يوم القيامة مع رسول الله ﷺ:
- أن ينال شفاعته ويشرب من حوضه.
- أن يكون في ظل العرش.
- أن يدخل الجنة. وذلك أعظم الفوز ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها من كثير صلاةٍ ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: فأنت مع من أحببت. (17)

وفي رواية قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت. وفي صحيح مسلم عن أنس أنه قال: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم.

لوازم محبة الله ورسوله ﷺ:

محبة الله ورسوله تُلزم المسلم أن يراعي الأمور التالية ويحافظ عليها:

1. عبادة الله وحده لا شريك له.
2. متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته.
3. الولاء لأهل الإيمان والبراء من أهل الشرك والعصيان.
4. الجهاد في سبيل الله بجميع أنواعه.

سلوكيات تحتاج إلى مراجعة

- 1- مسلم يقول إنه يحب الله ورسوله. وحين يسمع النداء للصلاة يبقى جالساً مع أصدقائه يشربون الشاي ويتحدثون، ولا يبادرون إلى الصلاة.
- 2- مسلم لا يقرأ القرآن إلا في شهر رمضان. ولا يتدبر في معانيه وأحكامه.
- 3- مسلم ليس له هم إلا العمل في التجارة والريح الحلال. ولا يتفكر في مواساة المسلمين ومساعدتهم.

المبحث الثالث: حسن الظن بالله تعالى:

حسن الظن بالله تعالى: يعني أن يكون المسلم راجياً رحمة ربه، معتقداً أن الله رحيم بعباده، رؤوف بهم، يريد لهم الخير ويهمهم اليسر. فالله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم ومن آباءهم وأمهاتهم.

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى امرأة من السبي تبحث عن ولدها حتى وجدته فألزقته إلى صدرها وأخذت ترضعه، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار وهي تقدر ألا تفعل؟ قالوا: لا. قال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها. (18)

التوسط في حسن الظن:

قد يفهم بعض الناس حسن الظن على وجه غير مقبول، فيقول: الله رحيم بعباده، غني عن عذابهم، غير محتاج إلى طاعتهم، وما دام كذلك فلن يعذب أحداً منهم، بل سيرحمهم جميعاً ويدخلهم في رحمته. وهذا القول يقود إلى التهاون بالطاعات والعبادات، والجرأة على المعاصي والذنوب، مما يفتح الباب أمام الفساد، ويؤدي إلى التظالم بين العباد.

إن الله سبحانه رحيم بعباده، غني عنهم، لكنه سبحانه وعد أن يرحم المحسنين وأن يعاقب العصاة المجرمين. قال تعالى: " أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم كيف تحكمون؟" سورة القلم/ 35- 36.

ومن جهة أخرى قد يجهل المسلم أهمية حسن الظن بالله تعالى، فيسيء ظنه بالله تعالى فيهلك، فقد يقع المسلم في معصية، ثم يريد أن يتوب منها، فيخطر له خاطر سوء يقول له: كيف يتوب الله علي وقد فعلت ما فعلت؟ وتتوارد عليه الخواطر السيئة ووسوسة الشيطان حتى ييأس من رحمة الله تعالى، وسيء ظنه به، فإذا فعل ذلك واستمر عليه حتى مات كان من الهالكين المعذبين. لقوله تعالى: " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" سورة يوسف/ 87.

إن حسن الظن يحتاج من المسلم أن يفهمه فهماً صحيحاً، بحيث يكون بين الخوف والرجاء، فيطمع في رحمة ربه وجنته، فيعمل الصالحات ويقبل على الطاعات والقربات، ويخاف عقاب ربه، فيبتعد عن الذنوب والمعاصي، ويكف عن المحرمات.

قال ابن القيم رحمه الله ولا ريب أن حسن الظن بالله إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه، أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصراً على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الأبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: (إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل). (19)

آثاره في النفس

(18) رواه مسلم برقم 2754

(19) الجواب الكافي ص: 14

حين يفهم المسلم حسن الظن بالله تعالى، وأهميته يبدأ بالتفاعل معه وإدراك آثاره في نفسه، من حيث التهذيب والتزكية والترقي في درجات الإيمان والتقوى.

فإن الله سبحانه يحب أن يرى عباده طائعين مخبتين متضرعين إليه يرجون رحمته ويخشون عذابه، لأن هذا يؤدي إلى أن يعرف كل امرئ ما له وما عليه، فلا يبغى أحد على أحد، ولا يؤذي أحد أحداً في دم أو مال أو عرض، وبذلك يصلح المجتمع، ويستقيم أمر الناس، ويعيشون في أمان وطمأنينة.

المسلم الذي يحسن الظن بالله تعالى: يعمل الصالحات ويجتنب السيئات، فيكون - في علاقته مع ربه - أعبد الناس. قال صلى الله عليه وسلم: "اتق المحارم تكن أعبد الناس". (20)

ويحسن إلى الناس، فيتعامل معهم برفق ورحمة، بحيث يرحم الصغير ويوقر الكبير، ويبر والديه، ويعرف حق ذوي القربى والجيران وكل من له بهم علاقة، فيخالقهم بخلق حسن راجياً في ذلك رحمة ربه. قال صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن". (21)

ويحسن إلى المخلوقات الأخرى التي سخرها الله له من حيوانات ودواب ونباتات وجمادات، فيكون تعامله معها وفق ما تقتضيه الشريعة، فقد بين صلى الله عليه وسلم أن: "رجلاً وجد كلباً أصابه العطش فسقاه فغفر الله له،

فقال الصحابة: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر". (22) وبين أيضاً أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت. (23)

وتعامل المسلم مع ثروات الأرض وخيراتها صورة عملية لحسن ظنه بربه، فهو في كل حركة وسكنة يرجو الله ويخافه، ويطلب رحمته ويطمع في جنته، ويخشى عذابه وعقابه. فهو يتعامل مع ثروات الأرض بانسجام وحسن استغلال، فلا يهدر الطاقات ولا يبدد الثروات، لأن فيها حقاً للأجيال القادمة، ولأن الإسراف وإضاعة المال حرام.

كل هذه الآثار تعود على المسلم وعلى مجتمعه بالخير، ويعيش الناس حياة آمنة مطمئنة مباركة. أما الذي لا يحسن الظن بربه سبحانه فإنه يكون بعيداً عن كل هذه المعاني والقيم، وسيتصف بصفات الضعف والجبن والبخل والعجز.. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما:

الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عز وجل.

الترغيب بحسن الظن

عن أنس رضي الله عنه قال: "بينما النبي جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: "ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟" قال: "رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، قال أعط أخاك مظلمته فيقول: يا رب لم يبق من حسناتي شيء، قال: يا رب فليحمل عني من أوزاري

(20) رواه الترمذي برقم: 2305 وصححه الألباني برقم 930

(21) رواه العسقلاني برقم 131 وحسنه الألباني 97

(22) رواه البخاري برقم 6009

(23) رواه البخاري برقم 3318

" ففاضت عين النبي بالبكاء ثم قال : " إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم " فيقول للمطالب ارفع رأسك فانظر إلى الجنان " فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا ؟ لأي صديق هذا ؟ لأي شهيد هذا ؟ قال الله : " هذا لمن أعطاني الثمن " قال : يا رب فمن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بماذا يا رب ؟ قال : " بعفوك عن أخيك " ، قال : يا رب قد عفوت عنه " قال : " خذ بيد أخيك فادخل الجنة " ثم قال رسول الله عند ذلك : " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة " (2 4) .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله للمؤمنين يوم القيامة ، وما أول ما يقولون له ، إن الله يقول للمؤمنين يوم القيامة هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا رب ، فيقول : لم ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول قد وجبت لكم مغفرتي "

من مواقف الصحابة في حسن الظن

عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين فدخل عليه واثلة بن الأسقع فلما نظر إليه مد يده فمسح بها وجهه وصدره وقد بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال واثلة : كيف ظنك بربك؟ قال : حسن

قال : فأبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الله يقول أنا عند ظن عبدي إن خير فخير وإن شر فشر) (25)

عن أبي المنذر الكوفي أن معاوية جعل يقول وهو في الموت :

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب رحيم عن مسيء ذنوبه كالتراب

لوازم حسن الظن

عن جابر رضي الله عنه انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل (2 6)

إن حسن الظن بالله تعالى يتطلب من المسلم أموراً أهمها :

- أن يعرف أن حسن الظن يعني إحسان العمل وإتقانه حتى يكون مقبولاً عند الله تعالى.
- أن لا يقعد عن العمل ولا يفتر عنه اغتراراً برحمة الله تعالى ومغفرتي. بل عليه أن يكون راجياً خائفاً حتى يلقي ربه سبحانه.
- أن يغلب جانب الخوف من الله تعالى عند خشية الوقوع في الحرام. ليردعه ذلك عن مقارفته. وأن يغلب جانب الرجاء عند مرضه وموته حتى لا يقنط من رحمة الله تعالى.

(24) رواه ابن كثير في نهاية البداية والنهاية - لصفحة أو الرقم: 59/2 إسناده غريب، وسياق غريب

(25) رواه الإمام أحمد (22125)، والطبراني في المعجم الكبير (184) ..

(26) رواه مسلم برقم 2877

- أن يحرص على مراقبة نفسه ومعالجة ما يأتيها من وساوس وخواطر سيئة. حتى لا تتراكم وتقوده إلى سوء الظن بالله تعالى.

- أن يتخذ أصحاباً أتقياء عقلاء يتناصح معهم ويتواصون بالحق وبالصبر. فالمسلم قوي بإخوانه ضعيف بنفسه.

وليعلم أن حسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في حديث شداد ابن أوس عن النبي ﷺ قال: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى. (27)

إن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حملة على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله. وليس للمرء أن يركن إلى رحمة الله تعالى وسعة مغفرته. ويأمن عقابه.

فإن قيل إن رحمة الله واسعة ومغفرته لعباده عظيمة، وأنه لا تتفعه العقوبة، ولا يضره العفو .

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه .

بعد هذا أخي المسلم أوصيك أن تكون راجياً رحمة ربك فهو صاحب الكرم والعطاء وهو أرحم بعباده من الأم بولدها والرجاء في الله هو حسن الظن بالله تعالى في قبول طاعة وفقت لها ومغفرة سيئة تبت منها .

أما الطمأنينة مع ترك الطاعات والإصرار على المخالفات فأمن وغرور وقد نهى الله تعالى عنه فقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعني الشيطان فإنه يحسن لك المعاصي. وربما يجرك إلى ذلك برجاء عفو الله تعالى وكرمه. وقد وصف الله تعالى الراجين بالمعنى الحقيقي فقال متحدثاً عنهم بأهم الأعمال التي يرجون رحمة الله تعالى بها (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) وفي المقابل فإن الله تعالى قد ذم من انقطع رجاؤه من فضله تعالى فقال (انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

اقرأ واستتج

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: حسن الظن من حسن العبادة. (28) . ماذا تستتج من هذا الحديث الشريف

(27) رواه الترمذي برقم 2459 وقال حديث حسن

(28) رواه أحمد برقم 3679 وأبو داود برقم 4993

المبحث الرابع: التوكل على الله تعالى

التوكل على الله خلق عظيم من أخلاق الإسلام وهو من أعلى مقامات اليقين وأشرف أحوال المقربين وهو نظام التوحيد ونصف الدين، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، وهو مفتاح كل خير لأنه أعلى مقامات التوحيد، وعبادة من أفضل العبادات. وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى. وعقيدة إسلامية لقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره . وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أكبر. وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل قال الله عز وجل (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وفي الآية الأخرى (وقال موسى إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) يونس: 84 فجعل دليل صحة الإسلام التوكل . وهو من أشرف الرتب وأعلى المقامات وهو من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان.

معنى التوكل

التوكل على الله تعالى يعني تفويض الأمر إليه ثقة بحسن تدبيره، واعترافاً من المرء بعجزه عن تدبير أمر نفسه، واحتياجه إلى الله تعالى ليدبر له أمره، ويكفيه همه.

ويأتي التوكل ليدل على عدة معانٍ منها:

- الضمان. يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان إذا اعتمدت عليه. ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه.
- الاعتماد على غيرك.
- التفويض: بأن تفوض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أحمد: التوكل قطع الاستشراف بالإياس من الخلق. وقال: وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به. الاستشراف: طلب ما بأيدي الناس والرغبة فيه. الإياس من الخلق يعني: اعتقاد أنهم لا ينفعون ولا يضررون إلا بإذن الله تعالى. وهذا يؤدي إلى عدم الاعتماد عليهم، والاحتياج إليهم.

وليس معنى التوكل أن يترك المرء الأخذ بالأسباب، ويهجر العمل، بل عليه أن يأخذ بالأسباب ويعمل، ويقدم ما عليه، لكنه يعلم أن النتائج بيد الله سبحانه، وهو الذي يعطي ويمنع ويفعل ما يريد. فالتوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق.

درجات التوكل

ذكر ابن القيم رحمه الله أن التوكل على درجات هي:

- 1 - الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، واليقين بأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.
- 2 - الثانية: إثبات الأسباب ورعايتها والأخذ بها.
- 3 - الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد.
- 4 - الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها، وطمأنينته بالله والثقة بتدبيره.
- 5 - الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

6 - السادسة : استسلام القلب لله وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعته.

7 - السابعة : التفويض وهو أن يسلم العبد أمره كلها إلى الله.

8 - الثامنة: الرضا

أقسام التوكل:

بين العلماء أن للتوكل أقساماً ثلاثة، كما يلي:

1 - توكل العبد على الله في استقامة نفسه وإصلاحها دون النظر إلى غيره.

2 - توكل العبد على الله في إقامة دين الله في الأرض ونصره، وإزالة الضلال عن عبیده وهدايتهم، والسعي

في مصالحهم، ودفع فساد المفسدين ورفعهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3 - توكل على الله في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، كالرزق والزواج والذرية والعافية، والانتصار

على العدو الظالم، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

ويلاحظ أن أشمل وأفضل هذه الأقسام هو القسم الثاني، لأنه يتطلب اهتمام المسلم بأمر الناس من حوله،

وهدايتهم والسعي في مصالحهم، وهذا يرتب على المسلم أهمية قيامه بدعوة الناس وتعليمهم وإرشادهم أخذاً بأسباب التوكل.

أهمية التوكل ومنزلته من العقيدة والإيمان والسلوك:

التوكل من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة. وهو مقترن بمراتب الدين الثلاث

(الإيمان والإسلام والإحسان) وشعائره العظام. كما أنه سبب لنيل محبة الله، قال تعالى (إن الله يحب المتوكلين).

وقد جاء الأمر به في كثير من الآيات مثل قوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقوله عز وجل (وتوكل على الحي الذي لا يموت).

ومما يدل على أهميته أن الله أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله، وجعله شعاراً لعباده المؤمنين

والثناء عليهم. وقد أمر الله رسوله بالتوكل في تسع آيات، وكذلك أمر المؤمنين عامة بالتوكل.

ومما ورد في السنة في فضل التوكل:

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: " اللهم ! لك أسلمت . وبك آمنت . وعليك توكلت .

وإليك أنبت . وبك خاصمت . اللهم ! إنني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ، أن تضلني . أنت الحي الذي لا يموت .

والجن والإنس يموتون " (29)

وعن الأوزاعي قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أسألك التوفيق لمحبّك من الأعمال،

وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك) (30)

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم اجعلني ممن توكل عليك

فكفيته، واستهداك فهديته، واستغفرك فغفرت له) (31)

(29) رواه مسلم برقم 2717.

(30) رواه الألباني في ضعيف الجامع - لصفحة أو الرقم: 1189 - ضعيف قال شعيب الارناؤوط: ضعيف أخرجه أبو نعيم في الخلية عن الأوزاعي مرسلًا، والحكيم الترمذي عن أبي هريرة.

مروي في كنز العمال ومسانيد الجامع الكبير.

استخرج خمساً

من الآيات القرآنية التي أمر فيها للنبي صلى الله عليه وسلم بالتوكل. واستعن على ذلك باستخدام المعجم المفهرس.

التوكل من سمات المؤمنين الصادقين، قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون).

وصفة التوكل من أبرز صفات المؤمنين الجليلة لأن اعتماد القلب على الأسباب الظاهرة واعتقاد أنها هي المؤثرة يخل بصحة الإيمان وسلامته بل هو في حقيقته شرك بالله تعالى. والتوكل على الله تعالى سلوك نفسي وقلبي، يقتضيه الإيمان الصحيح المائل في ساحة التصور الموجه للسلوك. ومما يدل على أهمية التوكل حاجة المسلم إليه حاجة شديدة، وخصوصاً في قضية الرزق، أو إذا كان صاحب دعوة، وحامل رسالة، وطالب إصلاح.

من أقوال السلف في بيان أهمية التوكل وارتباطه بالإيمان :

قال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الإخلاص والتوكل والاستسلام للرب عز وجل.

وقال أبو محمد سهل: ليس في المقامات أعز من التوكل.

وقال أحمد: التوكل عمل القلب.

الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب.

فضيل بن عياض: التوكل قوام العبادة، والتوكل من أوجب واجبات القلب. (32)

إن الإقرار بالربوبية والألوهية هو أول دليل على أنه وحده سبحانه المستحق أن يُفرد بالتوكل (قل هو الرحمن أمنا به وعليه توكلنا) سورة الملك/29، (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) سورة هود/56، (وتوكل على الحي الذي لا يموت) سورة الفرقان/58. واقترن الصبر بالتوكل على الله في مواضع منها (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) سورة العنكبوت/59. فالصبر مبدأ السلوك إلى الله تعالى، والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه. قال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) سورة إبراهيم/12. فالصبر والتوكل من أقوى الأسلحة في مواجهة الشدائد والصعاب في طريق الدعوة وتحمل أعبائها، وقيل الصبر خاص بوقت المصيبة، والتوكل في أمر مستقبل، والصبر في حاجة للتوكل لأنه (أي الصبر) من العبادات، وكلاهما من أمهات الصفات التي يجب على المؤمن الاتصاف بها، وقيل الصبر في أمر مملوك يحتاج للتحمل، والتوكل خاص بأمر غيبي كوني يحتاج للاعتماد على الله والثقة بتدبيره، والتوكل على الله هو نتيجة للصبر.

من أعظم مقامات التوكل وأرفعها التوكل على الله في إقامة الدين، ودعوة الناس إليه، وهو يحتاج إلى همة عالية كما هي همم الرسل والأنبياء وبعدهم الصحابة رضي الله عنهم. قال الله تعالى (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

قال ابن عباس: " حسبنا الله ونعم الوكيل " قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له الناس (إن الناس قد جمعوا لكم).

عوائق التوكل:

هناك عوائق تمنع الإنسان من تحقيق التوكل. أهمها:

- 1 - الجهل بمقام الله من ربوبية وألوهية وأسماء وصفات
- 2- الغرور والإعجاب بالنفس
- 3- الركون للخلق والاعتماد عليهم في قضاء الحاجات
- 4- حب الدنيا والاعتزاز بها. مما يحول بين العبد والتوكل لأنه عبادة لا تصح مع جعل العبد نفسه عبداً للدنيا.

فإذا أراد المسلم أن يتوكل على الله حق التوكل، فعليه أن يتخلص من هذه العوائق، بأن يتصف بضدها، فيتعلم العلم النافع، ويتحلى بالتواضع وعدم الغرور، ويتجرد من الاعتماد على الخلق، ويعود نفسه على حب الآخرة والإقبال عليها، والزهد في الدنيا.

قواعد التوكل:

من أهم الأمور التي تقدر في التوكل التفات القلب إلى الأسباب وتعلقه بغير الله تعالى، ومن الأشياء التي تنافي أصل التوكل:

- 1- التعلق بسبب لا تأثير له كالأموات والغائبين والطواغيت فيما لا يقدر عليه إلا الله.
- 2- اعتقاد أن السبب سواء المشروع أو المحرم فاعل بنفسه دون الله فذلك شرك أكبر.

علاقة التوكل بالأسباب:

مواقف الناس من الأسباب على أربعة أقسام:

- 1 - الالتفات إلى الأسباب بالكلية واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر لمسببها: كنظرة الماديين فوقعوا في الشرك لأنهم أثبتوا موقداً مع الله مستقلاً بالضر والنفع.
- 2 - الإعراض عن الأسباب بالكلية: كنظر غالب الصوفية للتوكل ، فهم لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية فتركوا التكسب والعمل والاحتراز والاحتياط والتزود في السفر والطعام ويرون ذلك كله منافياً للتوكل.
- 3 - نفي تأثير الأسباب بالكلية: وصف العلماء هذا القول بأنه (نقص في العقل) وهو قول القدرية الجبرية ، وهم يرون أن الله لم يخلق شيئاً سبباً ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر.
- 4 - قيام الجوارح بالأسباب، واعتماد القلب على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى: هذا مذهب أهل السنة والجماعة وهو الحق الذي دل عليه الشرع والعقل.

الأخذ بالأسباب والتوكل على الله	نفي تأثير الأسباب	إعراض عن الأسباب	اعتماد على الأسباب	
سأدرس بهمة ونشاط، لأن الدراسة سبب في النجاح، لكنني على يقين أن النجاح بيد الله تعالى.	لن أدرس فالدراسة لا داعي لها، ولا تؤثر في نجاح أو رسوب، فكل ذلك بيد الله تعالى.	لن أدرس لأنني متوكل على الله، وسأنجح إذا اراد الله لي النجاح.	سأدرس لأن الدراسة هي الكفيلة بنجاحي ولا شيء غيرها.	طالب في مدرسته

سأتزوج وأختار الزوجة الصالحة، لأن الزواج سبب في الذرية، لكنني على يقين أن إنجاب الذرية بيد الله تعالى، فهو الذي يرزق، وهناك أناس تزوجوا فلم يرزقوا بالبنين والبنات.	لن أتزوج لأن الزواج لا دخل له في موضوع الإنجاب، والأمر بيد الله، ولو شاء لرزقني بنين وبنات.	لن أتزوج، وسيكون لي أبناء وبنات لأنني متوكل على الله تعالى، وسأدعوه أن يرزقني الذرية.	سأتزوج لأنجب أبناء وبنات، فالزواج كفيل بذلك. وإذا تزوجت فلا بد أن أنجب.	رجل أعزب
سأزرع الأرض وأعتني بها أحسن عناية، لأن ذلك سبب في الرزق وتحسين الإنتاج وزيادته، ولكنني على يقين أن الرزق بيد الله تعالى، إن شاء رزقني وإن شاء حرمني.	لن أزرع الأرض ولن أعتني بها، لأن هذه الأعمال لا قيمة لها، إذ لو أراد الله أن يرزقني لرزقني لأنه قادر على كل شيء.	لن أزرع أرضي ولن أعتني بها، فرزقي في السماء بيد الله تعالى، وسيرزقني لأنني متوكل عليه سبحانه.	سأحرث الأرض وأزرعها، فالعمل والحرث والزرع كفيل بأن يجعل هذه الأرض تنبت وتدر عليّ دخلاً كثيراً، ومالاً وفيراً.	مزارع
أخذ بالأسباب يؤدي إلى نجاح وإنجاب ذرية وكثرة رزق، ولكن مع اليقين التام أن الأمر كله بيد الله تعالى، وهذا هو التوكل على الله سبحانه.	نقص في العقول، وإفساد لدنياهم وأخرتهم، فبالأسباب لها تأثير، ولكنه تأثير بإذن الله تعالى.	تواكل يؤدي إلى ضياع العمل وخسارة العمر وهلاك الحرث والنسل، ولو فعل جميع الناس ذلك لهلكوا وخربت دنياهم. وهذا التواكل ناتج عن الجهل ونقص العقل.	قد ينجح الطالب الذي اعتمد على دراسته، وينجب الذي اعتمد على الزواج، وينتج الزارع الذي اعتمد على العمل، لكن هؤلاء كفار لا دين لهم لأنهم عرضوا عن الله الذي هو رب الأسباب ومسببها.	النتائج

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم على ناقه له، فقال: يا رسول الله

(3 3)

أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل.

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم

(3 4)

كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً.

أعقلها: أربطها.
تغدو: تذهب في الصباح.
خماصاً: جياعاً.
بطاناً: ممثلات البطون.

(33) رواه الترمذي برقم: 2517. وحسنه الالباني برقم 2517

(34) صححه الالباني برقم 310.

وعن المقدم بن معدي كرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده (35)

وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ، ثم يأخذ ما بقي فيجعله يجعل مال الله ، فعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حياته... (36)

ولقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون ، فقال أنتم المتكولون، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله. (37)

وفي ذلك الرد البليغ على من يتركون الأسباب تقاعساً بدعوى التوكل على الله ، ولو صدقوا لأحسنوا العمل. التواكل:

أما التواكل فهو: ترك الكسب. والطمع في المخلوقين والاعتماد عليهم بالتخلي عن الأسباب التي وضعها الله عز وجل. والانقطاع عن السعي. والتقاعد عن العمل. وانتظار النتائج من الخلق أو القدر أو الاتكال على الله أن يخرق له العوائد. ولأصحاب هذا المفهوم أدلة باطلة. والتواكل خسة همة وعدم مروءة لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الأسباب. ولقد حارب الإسلام التواكل وحذر منه. لأنه مخالف للشرع. مبطل للعمل.

ثمار التوكل:

للتوكل ثمار طيبة، يجنيها المسلم إذا توكل على الله حق التوكل. ومن هذه الثمار:

1. تحقيق الإيمان: قال تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)
2. طمأنينة النفس وارتياح القلب وسكونه.
3. كفاية الله المتوكل جميع شئونه: لقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه.
4. يورث محبة الله تعالى للعبد لقوله تعالى (إن الله يحب المتوكلين) سورة آل عمران/159.
5. يورث قوة القلب وشجاعته وثباته وتحديه للأعداء ويورث القوة الروحية لحديث (... ومن سره أن يكون

أقوى الناس فليتوكل على الله... (38)

6. يورث الصبر والتحمل. ولهذا اقترن الصبر بالتوكل على الله في مواضع من القرآن منها (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) سورة العنكبوت/59. (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) سورة إبراهيم/12.

7. يورث النصر والتمكين ، ولهذا قرن الله تعالى بينه وبين التوكل في قوله (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ... وعلى الله فليتوكل المؤمنون) سورة آل عمران/160.

(35) رواه البخاري برقم 2072.

(36) رواه البخاري برقم 4033.

(37)

(38) رواه ابن أبي حاتم وعبد الله بن أحمد في الزهد والحاكم وابن أبي الدنيا والطبراني وأبو نعيم وأبو يعلى والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس وضعفه العراقي في تخريج الإحياء وحسنه المناوي في التيسير تبعاً للسيوطي.

يقوي العزيمة والثبات على الأمر. قال تعالى: (فإذا عزمتم فتوكل على الله) سورة آل عمران/159، و قال تعالى:(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..) سورة التوبة/51 ، ولحديث (إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل). (39) عزاه ابن كثير لابن مردويه.

8. بقي من تسلط الشيطان. قال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وفي حديث (إذا خرج الرجل من باب بيته كان معه ملكان موكلان به، فإذا قال: بسم الله، قالاً: هديت. فإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قالاً: بوقيت. فإذا قال: توكلت على الله، قالاً: كفيت. قال: فيلقاه قريناه فيقولان: ماذا تريدان من رجل قد هدي ووقى وكفى). (40)

9. من أسباب دفع السحر والحسد والعين. قال تعالى: (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة..) سورة يوسف/67.

10. يورث الرزق . فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً.

11. يورث الرضا بالقضاء . قال ابن القيم: فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيهه.

12. دخول الجنة بوجوه مضيئة على صفة القمر ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر (...). (41)

13. هم أول من يدخل الجنة لحديث (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة) (42) رواه البخاري ومسلم.

نماذج عملية في التوكل واتخاذ الأسباب:

حين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى المدينة خطط للهجرة تخطيطاً محكماً، فرتب كيفية الخروج ووقته، بحيث لا يشعر به المشركون، وهياً الرواحل للسفر، واستأجر دليلاً يدلّه على الطريق، ورتب موضوع الاختباء في غار ثور، وكيف يأتيه الطعام هناك (43) ..

• موقفه في غزوة بدر الكبرى، وكيف خطط للمعركة بعد أن علم أنها واقعة، ورتب جنده، وهياًهم نفسياً ومادياً بما يستطيع، وسوى صفوفهم، ورتب أرض المعركة ليستفيد من الماء ويحرم منه المشركين، وشارك عملياً في المعركة، ولجأ إلى الدعاء واستتزال النصر. والرسول صلى الله عليه وسلم أحب الخلق إلى الله تعالى، والله قادر على أن ينصره ويعينه دون أن يأخذ بالأسباب، ولكنه يعلمنا أن هذا الدين لا ينصر بالمعجزات، ولا

(39) ابن كثير برقم: 148/2 وقال غريب من هذا الوجه

(40) ضعيفه ابن ماجه و الألباني - برقم: 781

(41) رواه البخاري برقم 6542 ومسلم برقم 217

(42) رواه البخاري برقم 3246 ومسلم برقم 2834

(43)

يكفي أن يقعد المسلم في زاوية المسجد يدعو على الأعداء بالهلاك، بل لا بد أن يخطط ويعمل ويعد إعداداً كافياً، ثم بعد ذلك يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء، فيأتيه النصر.

• كان المهاجرون في مجموعهم أهل تجارة وكان الأنصار أهل زرع. وهذا يعني أنهم يأخذون بالأسباب مع علمهم أن الله هو الرزاق، ولكنهم لا يعتمدون على الأسباب، بل يأخذون بها، ويتوكلون على الله تعالى.

المبحث الخامس: الرجاء والخوف

جاء الإسلام يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والتوجه إليه بالتوحيد والطاعة والإخلاص. وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على ترغيب الناس بعبادة الله تعالى، وتحذيرهم من الشرك والظلم والمعاصي. وكان هذا الترغيب عن طريق بيان الأجر والثواب الذي أعده الله للمؤمنين، والجنة ونعيمها الخالد المقيم، كما كان التهيب يتم من خلال بيان الإثم والعقاب الذي سينال العصاة المستكبرين، والنار وما فيها من عذاب شديد. وبناء على ذلك كانت استجابة المؤمنين لله ولرسوله انطلاقاً من الرغبة في الجنة ونعيمها، وخوفاً من النار وعذابها.

معنى الرجاء والخوف:

الرجاء أن تطمع في تحقيق نفع معين والحصول عليه، مع السعي الصادق والأخذ بالأسباب، والخوف أن تشعر بالرهبة من توقع حصول ألم معين في المستقبل، مع السعي الصادق لتجنبه والابتعاد عنه.

الجمع بين الرجاء والخوف

يرى الإمام أبو حامد الغزالي أن: الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المؤمن في ملكوت الله إلى كل مقام محمود، فهما جناحان لا بد منهما معاً لأن الطائر لا يمكن أن يطير بجناح واحد.

وهذا يعني أن لا يكتفي المؤمن بالرجاء وحده، أو بالخوف وحده، فالمرء إذا كان راجياً فقط، ربما يتحول الرجاء إلى الأمن من مكر الله، والطمع في رحمته دون خوف من عقابه، وهذا خطر عظيم لأنه قد يقود إلى ارتكاب المعاصي والمحرمات بسبب عدم الخوف. قال تعالى (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) سورة الأعراف/

وكذا فإن الخوف من عذاب الله تعالى دون أن يرافقه رجاء في رحمته ورضاه سيؤدي إلى اليأس والقنوط، وعندما يصل المرء إلى اليأس والقنوط فقد حكم على نفسه بالضياع والدمار، وعلى عمله بالحبوط والخسران، قال تعالى: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) سورة يوسف/ وقال تعالى: (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) سورة الحجر/

وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تبين حال المؤمن في الجمع بين الرجاء والخوف، منها قوله تعالى:

(إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) سورة الأنبياء/90. وقوله تعالى:

أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون..) سورة الزمر/9.

وعن أبي هريرة . رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ . مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَكَوَّ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » . (4 4)

وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا النَّاسُ أَوْ الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ : قَدُمُونِي قَدُمُونِي ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ ، قَالَتْ : يَا وَيْلَهَا ، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا ؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ ، وَكَوَّ سَمِعَهُ لَصِيقًا » . (4 5)

وعن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحْرَاكُمْ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » . (4 6)

الفرق بين الرجاء والأمن من مكر الله:

المؤمن الذي يرجو رحمة ربه إنسان إيجابي يعلم أن رحمة الله واسعة، ومغفرته عظيمة ورضوانه كبير. وهذه المعرفة تقوده إلى العمل الصالح واستقامة النفس والسعي إلى القربات والصالحات وفعل الخيرات، لينال بذلك رحمة الله وثوابه ويدخل جنته، أما الإنسان الذي يرجو رحمة ربه وهو قاعد لا يعمل، ومرتكب للسيئات لا يفارقها، فهو إنسان جاهل شديد الجهل، لأنه لم يأخذ بأسباب الرحمة، ولم يسع إليها، فكيف تدركه رحمة الله؟ ومن الصور التي يختلط فيها الرجاء والأمن أن يقول الإنسان لنفسه: إنني على خير، وقد عملت ما هو مطلوب مني، ولن يعذبني الله تعالى، لأنه رحيم، ويستمر به هذا الحال حتى يصير على قناعة أنه لن يعذب ولن يدخل النار، وهذا الحال خطير جداً لأن الإنسان إذا أمن العقوبة أساء الأدب، وإذا رضي عن نفسه ورضي عن عمله قعد عن العمل والتزود من الخير، فيحبط عمله ويضيع.

والتوسط في ذلك أن يكون المسلم راجياً رحمة ربه طامعاً برضاه وجنته، وفي الوقت نفسه يكون خائفاً من عذابه، فالرجاء يدفعه إلى العمل الصالح والمبادرة إلى الخيرات، والخوف يردعه عن الوقوع في المعاصي والمحرمات، ولا يزال كذلك حتى يلقي ربه راجياً خائفاً فيعطييه ما كان يرجو ويبعد عنه ما كان يخاف.

قال ابن القيم – رحمه الله
: "من كان رجاءه جاذباً له على الطاعة زاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطاً فهو المغرور" (47)

الفرق بين الخوف واليأس

وفي المقابل فإن المؤمن الذي يخاف الله تعالى هو إنسان إيجابي، لأن خوفه يكفه عن ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق، ويكفه أيضاً عن كل شر ومعصية، أما الإنسان اليأس فهو إنسان غلب عليه الخوف إلى درجة أن يعتقد أنه لن ينجو من النار، ولن يدخل الجنة، ولن تدركه رحمة الله تعالى، وهذا يقوده إلى ترك العمل، لأنه سيقول في

(44) رواه مسلم برقم 2755

(45) رواه البخاري برقم 1314

(46) رواه البخاري برقم 6488

(47) الجواب الكافي (24/1).

نفسه: ما فائدة العمل إذا كنت سأذهب إلى النار. وعندئذ يضحك منه الشيطان ويوسوس له بأن يكمل حياته في المعاصي والمنكرات لأنه لا أمل له في الجنة.

خير الأمور الوسط

يتضح مما تقدم أن هناك أمرين محمودين هما الرجاء والخوف. وأمرين مذمومين هما الأمن واليأس. وأمرين ممنوعين هما أن يعبد المرء ربه دون أن يرجو رحمته أو يخاف عقابه. والمطلوب من المسلم أن يتوسط فيكون خاشياً لله تعالى خائفاً من عقابه وعذابه. وفي الوقت نفسه أن يكون راجياً رحمة الله تعالى. طامعاً بالفوز بجنته ورضوانه، فهذا سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلي من ورثة جنة النعيم) سورة الشعراء/82_85. فهو - مع جلالة قدره وعلو مكانته - يخاف خطيئته ويطمع في أن يغفرها الله له، ويرجو ربه أن يدخله الجنة. وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبه ربه تعالى بقوله: (قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) سورة الأنعام/15. وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم أشد الناس خشية لله وأكثر الناس حياءً لله ورجاء لرحمته، فهل يجوز لمسلم أن يقول: أنا أعبد الله تعالى لا طمعاً في رحمته ولا خوفاً من عذابه؟ وهل يجوز أن يأمن مكر الله ويقول: لن يعذبني الله تعالى ولن يدخلني النار؟ أو يقول: لا بد أن أدخل الجنة؟

المسلم مطالب بتحقيق الخوف والرجاء إذ هما من ركائز العبودية الصحيحة، وحال المسلم بين الخوف والرجاء يرجو رحمة الله ويخشى عذابه واستدراجه، وبذلك يستقيم أمره وتنتظم أحواله، على أنه ينبغي أن يعلم أن الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى الله والرجاء لا يكون رجاءً صحيحاً إلا إذا كان معه عمل، وحسن الظن يكون مع الإحسان فالمحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته، وأما المسيء المصّر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه. (48)

مواقف الناس تجاه الرجاء والخوف

من خلال الجدول المرفق يمكن أن نعرف مواقف الناس تجاه موضوع الرجاء والخوف:

التصنيف	السلوك	الاعتقاد	المنصف
جاهل مغرور.	يقع في المعاصي والذنوب ولا يبالي.	يزعم أنه سيدخل الجنة لأن الله غفور رحيم، وغني عن عذابه.	1- لا يخاف الله ولا يخشى عذابه.
خاسر ضيع نفسه وأحبط عمله.	قاده اليأس إلى ترك العمل الصالح، والوقوع في المحرمات.	يزعم أنه لن ينجو من عذاب الله مهما عمل من الصالحات.	2- يائس لا يرجو رحمة الله ولا يطمع فيها.
مؤمن صلحت عقيدته واطمأنت نفسه، فاستقامت حياته.	الخوف يمنعه من فعل المعاصي، والرجاء يدفعه إلى فعل الخير.	يؤمن أن الله غفور رحيم ورحمته وسعت كل شيء، وأن الله شديد العقاب، وهو لا يخلف الميعاد.	3- يخشى عذاب الله ويطمع في رحمته.

نماذج من الرجاء والخوف

يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تمتعتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون، ولوددت أني شجرة تُعضد". (49)

ويقول أيضاً: كيف أنعم؟ وصاحب القرن قد التقم القرن وأحى جبهته وأصاخ بسمعه ينتظر أن يؤمر بالنفخ فيه فينفخ.

هذه الأحاديث تدل على شدة خوف النبي من الله سبحانه، فالخوف يحرمه من التمتع بالدنيا والركون إليها، والاطمئنان إلى نعيمها ومتعتها، ويدفعه إلى مواصلة العبادة والدعوة والجهاد، حتى يلقي ربه وهو على أحسن الأحوال وأفضل الطاعات والأعمال. كما أن هذه الأحاديث وما أشبهها كانت حافزاً للصحابة إلى العمل الصالح والزهد في الدنيا والجهاد في سبيل الله تعالى.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير البكاء من خشية الله وكذلك كان الصحابة إذا قرأوا القرآن أو قرئ عليهم فاضت أعينهم من الدمع خوفاً ووجلاً، وازدادوا إيماناً وسارعوا إلى العمل الصالح. وكان الشوق إلى الجنة والطمع بدخولها يشكل حافزاً عظيماً إلى العمل الصالح والتنافس فيه، حتى كان الصحابة يسألون الرسول عن العمل الذي يدخلهم الجنة ويبعدهم عن النار.

أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: ماله ماله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أرب ماله، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. (50)

قال النبي لربيعة بن كعب الأسلمي: سلني يا ربيعة، فقال ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: أو غير ذلك؟ قال: لا. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود. (51)

كان في المدينة المنورة بئر يملكه يهودي اسمه رومة، وكان يبيع الماء للمسلمين مستغلاً حاجتهم إلى الماء، ولما علم النبي بذلك قال لأصحابه: من يشتري بئر رومة وله الجنة؟ فسارع عثمان بن عفان إلى شراء البئر وجعله سبيلاً يشرب منه المسلمون بلا ثمن.
قال صلى الله عليه وسلم: عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله. (52)
وقال صلى الله عليه وسلم: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. (53)

نلاحظ مما سبق:

- أن الرغبة في الجنة حافز على العمل الصالح الذي به تستقيم أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

(49) رواه الترمذي برقم 2312 وقال حسن غريب

(50) رواه البخاري برقم: 1396

(51) رواه مسلم برقم 489

(52) رواه البخاري برقم 271

(53) رواه البخاري برقم 660

- أن الخوف والرجاء بمفهومهما الصحيح يحركان المسلم إلى عمارة الكون والمبادرة إلى الخير الذي ينفذ الناس.
- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوظف الخوف والرجاء في تحقيق ما ينفذ المسلمين، في الدنيا والآخرة.
- أن الحفاظ على حقوق المسلمين وحفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، إنما يقوم به الذين يخافون الله تعالى ويخشونه. فالذي يحرس في سبيل الله لحماية المسلمين لا يدخل النار، والذي يبكي من خشية الله لا يدخل النار، والذي يمتنع عن الزنا ويحرم نفسه من التمتع بالحرام خوفاً من الله تعالى لا يدخل النار، وهكذا..

المبحث السادس: الشكر

الشكر مقام من مقامات الإيمان، وهو يتكون من ثلاثة أمور: علم وحال وعمل. فالعلم: أن تعلم بالنعمة، ووجه كونها نعمة، والمنعم بها، فالنعمة كلها من الله تعالى، هو المنعم، وكل شيء في هذا الكون فهو من الله تعالى، الله أوجده وأنعم به. والناس الذين يوصلون إليك نعمة من النعمة ليسوا بمنعمين على الحقيقة بل هم وسائط في إيصال النعمة إليك، ولا يد لهم فيها، إلا أن الله سبحانه سخرهم ليوصلوا إليك نعمة.

أما الحال فهو مستمد من العلم، فمن عرف المنعم والنعمة ووجه كونها نعمة استمد من ذلك الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، والإنسان المنعم عليه أحد ثلاثة:

- إنسان يفرح بالنعمة لكونها نعمة يتمتع بها ويقضي بها وطره ويحصل مطلوبه، ولا يلتفت إلى المنعم بها.

- إنسان يفرح بالنعمة لكونها دالة على عناية المنعم به ورعايته له.

- إنسان يفرح بالنعمة لكونها تقريه من المنعم وتوصله إليه.

قال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

(4 5)

وقال الخواص: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب.

أما العمل فهو أن يعمل المرء بموجب الفرح الحاصل له من معرفة المنعم، وهذا العمل يتعلق بثلاثة أمور: القلب واللسان والجوارح.

- أما عمل القلب فهو قصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

- وعمل اللسان إظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه.

- وعمل الجوارح استعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي عن استعمالها في معصيته.

وبناء على ذلك يتم شكر كل نعمة من خلال فعل وترك، كما يبينه كما في المثال التالي:

شكر نعمة العين:

أن تنظر بها إلى الكون فتتفكر في خلق الله لتستدل على عظمته ووحدانيته. أن تغضها عن النظر إلى ما حرم

الله تعالى

أكمل:

شكر نعمة اللسان

شكر نعمة اليد

شكر نعمة السمع

شكر نعمة المال

قصة لطيفة:

قدم وفد على عمر بن عبد العزيز فقام من بينهم شاب ليتكلم. فقال عمر: الكبر الكبر. فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك. قال عمر: تكلم. فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك، إنما نحن وفد الشكر. جئناك لنشكرك باللسان وننصرف. (5 5)

بين الشكر والكفر

يكثر في القرآن الكريم المقابلة بين الشكر والكفر. فمن ذلك قوله تعالى: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) سورة إبراهيم: [وقوله تعالى: (إن تكفروا فإن الله لغني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم..) سورة الزمر: [7] وقوله تعالى: (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) سورة النمل: [1]. ومعنى ذلك أن الإنسان إما أن يكون شاكراً لنعم الله تعالى أو كافراً بها. فمن استعمل النعم فيما يحبه الله تعالى، كان شاكراً، ومن استعملها فيما يغضب الله تعالى ويسخطه كان كافراً لهذه النعم.

إن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى وما يكرهه. ومعرفة ذلك تكون من خلال العلم بالقرآن والسنة. فإذا عرف المسلم مثلاً أن الله سبحانه يحب التواضع ويكره الكبر، استطاع أن يعرف طريق الشكر ويتعد عن كفر النعمة بأن يتواضع للمسلمين ويخفض جناحه لهم ويعاملهم بالمودة والمحبة، ويتعد عن التكبر واحتقار الناس وظلمهم. وإذا عرف المسلم أن الله تعالى يحب الإخلاص ويكره الرياء والنفاق، استطاع أن يعرف طريق الشكر بأن يخلص لله تعالى في كل عمل يعمل، ويتعد عن الرياء والنفاق. وهكذا يكون الأمر في جميع الأعمال.

نشاط:

من نعم الله تعالى عليك نعمة الطعام، بين في نقاط كيف تشكر الله تعالى على هذه النعمة، وكيف تتجنب كفرانها؟

النعم وأقسامها

إن كل خير ولذة وسعادة يمكن أن يسمى نعمة، ولكن النعمة الحقيقية هي السعادة في الآخرة، وكل شيء يعين على الوصول إلى سعادة الآخرة فهو نعمة حقيقية كذلك.

ويمكن أن تقسم الأمور إلى الأقسام التالية:

- ما كان نافعاً في الدنيا والآخرة كالعلم وحسن الخلق.

- ما كان ضاراً في الدنيا والآخرة كالجهل وسوء الخلق.
 - ما كان نافعاً في الدنيا ضاراً في الآخرة كالتلذذ باتباع الشهوات.
 - ما كان ضاراً في الدنيا نافعاً في الآخرة كمقاومة الشهوات ومخالفة النفس.
- فالنافع في الدنيا والآخرة هو النعمة، والضار فيهما هو البلاء، والنافع في الدنيا الضار في الآخرة بلاء عند العقلاء، ونعمة عند أهل الجهل، والضار في الدنيا النافع في الآخرة نعمة عند العقلاء وبلاء عند أهل الجهل.
- والنعمة جميعها ترجع إلى ثلاث نعم هي الأصل الذي تتفرع عنه كل نعمة، وهذه النعم هي:
- نعمة الإيجاد من العدم.
 - نعمة الإمداد بالنعمة.
 - نعمة الهداية للإسلام.

قال ابن عطاء الله:
نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكل مكوّن منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.
وقال: أنعم عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد. (56)

فأما نعمة الإيجاد فأشار إليها قوله تعالى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) [سورة الإنسان: 1] وبهذه النعمة صار الإنسان شيئاً مذكوراً، وخرج من ظلمات العدم إلى أنوار الوجود.

ونعمة الإمداد تعني أن الإنسان يعيش في نعم متواصلة متتابعة، ولو توقفت هذه النعم برهة لهلك الإنسان، فهو ضعيف لا يستغني عن الطعام والشراب والنفس، كما أنه لا يستغني عن نبض القلب وجريان الدم في عروقه واشتغال أعضاء جسمه من لحم ودم وعصب.. وكل ذلك إمداد بالنعمة المتتالية المتتابعة.

ونعمة الهداية للإسلام لو فكر المرء فيها لوجد أن الله تعالى اختاره من بين خلائق لا تحصى ليكون مسلماً، وأنعم عليه بهذه النعمة التي يتمنى الكفرة يوم القيامة لو كانت لهم، كما قال تعالى: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) [سورة الحجر: 2].

ثم تتفرع النعم عن هذه الأصول الثلاثة لتشمل كل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان، وكل من نظر إلى حاله، ويبحث عما خص به وجد لله تعالى عليه نعماً تفوق الحصر والإحصاء، كما بين سبحانه في قوله: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [سورة النحل: 18].

والشكر على هذه النعم يكون بالاعتراف لله سبحانه بفضل العظيم، والإكثار من ذكره وحمده، وتوجيه القلب والجوارح واللسان لتوحيد الله سبحانه والإخبار له والإنابة إليه.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم". (57)

وقال ابن عطاء الله: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. (58)

(56) الحكم العطائية/ لابن عطاء الله السكندري (ت709هـ) ص29.

(57) إحياء علوم الدين 184/4.

(58) الحكم العطائية/ لابن عطاء الله السكندري (ت709هـ) ص23.

جزاء الشاكرين

جزاء الشاكرين عظيم، وثوابهم لا يعلمه إلا الله سبحانه، لأن الشكر مقام من مقامات الإيمان، وهو مشتمل على علم وحال وعمل، والشاكر يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه، ويستخدم النعم التي أوتيتها في مرضاة الله سبحانه، ويتجنب استخدامها في المعصية، فهو بذلك يقوم بعمل عظيم وعبادة جليلة، ولذلك استحق الثواب كما بينه قوله تعالى: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) لسورة آل عمران: [كما استحق أن يكون آمناً من العذاب كما بينه قوله تعالى: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً) لسورة النساء: 147].

والشاكر يفوز برضا الله سبحانه، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله

ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها". (59)

كان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. (60)

المبحث السابع: الصبر

الصبر مقام من مقامات الدين، وخلق إسلامي عظيم حث عليه الإسلام وأمر به ودعا إليه، وبين أجره العظيم وثوابه الكريم عند رب العالمين، فقال تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) سورة الزمر/10. وأثنى على الصابرين في مواطن عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (وبشر الصابرين)سورة البقرة/155، وقوله تعالى: (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) سورة الشورى/43. كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن: " الصبر ضياء...." (61) وأنه: " ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" (62)

خلق الله سبحانه الإنسان محتاجاً إلى الطعام والشراب واللباس والمأوى والزواج وغير ذلك من الحاجات، وجعل فيه قوة تدفعه إلى طلب ما يقضي حاجته، ويشبع رغبته، وهذه القوة هي الشهوة التي بسببها يتوجه الإنسان ليعمل وينتج، ولو أن هذه الشهوة عطلت لقعد الناس عن العمل، إذ ما الذي يدفع الإنسان إلى طلب الطعام إذا كان لا يشعر بالجوع؟ وما الذي يدفعه للزواج إذا كان لا يشعر بالميل إليه؟ ولو أن هذه الشهوة انطلقت بغير ضوابط لأفسدت ودمرت، ولذلك كان لا بد من وجود هذه الشهوات والرغبات في الإنسان، ولا بد أيضاً من تقييدها وترشيدها، لذا فقد وضع الإسلام لها ضوابط تضبطها، وقوانين ترشدها وتسيرها، وهذه القوانين هي أحكام

(59) رواه مسلم برقم 2734

(60) رواه مسلم برقم 486

(61) رواه مسلم برقم 223.

(62) رواه البخاري برقم 1469

الشرعية التي تحث على كسب الحلال وتجنب الحرام، وتبين أن "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" (63) فلا يجوز لأحد أن يعتدي على أحد، أو يظلمه.

هذه القوانين والتشريعات تحتاج من المسلم إلى قوة إيمان ليستجيب لها فيكف عن اتباع شهواته، وتلبية رغباته بالطرق المحرمة، وقوة الإيمان التي يبلغ بها الإنسان ذلك هي الصبر، "فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى" (64). أو هو حبس النفس على ما تكره.

بين العلماء أن الصبر أقسام هي:

- الصبر على فعل الطاعات والتكاليف الشرعية.
- الصبر على ترك المحرمات والمعاصي.
- الصبر على المصائب والشدائد والبلايا. (65)
- الصبر على الأذى.

أما الصبر على فعل الطاعات والتكاليف الشرعية، فيتحقق بأن يعرف المسلم أهمية هذه الطاعات وأن الله تعالى يحبها ويأمر بها ويثيب عليها، ويعاقب على تركها، فإذا عرف المسلم ذلك أقبل على هذه الطاعات يؤديها على وجهها، ويقوم بحققها ابتغاءً لرضوان الله تعالى، وطمعاً في ثوابه، وعندئذ لا يشعر أنها ثقيلة أو صعبة، بل يبادر إليها بسرور ونشاط.

وأما الصبر على ترك المحرمات والمعاصي، فيتحقق بأن يعرف المسلم قبح هذه المعاصي وضررها، وأن الله سبحانه يبغضها وينهى عنها ويعاقب على فعلها ويثيب من يتعفف ويصبر عنها، فإذا عرف المسلم ذلك بادر إلى تجنب المعاصي، وابتعد عن مواطنها وأماكنها، وطرد وسوسة الشيطان، وأقنع نفسه بأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

وأما الصبر على المصائب والشدائد والبلايا، فيتحقق بأن يعرف المسلم أنه ما من مصيبة تصيبه إلا وهي مقدرة ومكتوبة عليه قال تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) سورة الحديد/22، وهذا يؤدي بالمسلم إلى الرضا بقضاء الله فيعينه ذلك على الصبر.

وأما الصبر على الأذى فأكثر من يتعرض له الأنبياء والدعاة الذين يعلمون الناس ويرشدونهم إلى الخير، حيث يرفض الكفار والمفسدون هذه الدعوة وما فيها من خير ويعلمون حريهم ضد الدعوة، ويؤذونهم بالاستهزاء والضرب والطرده والقتل... قال تعالى: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) سورة آل عمران/186. وأخبر القرآن عن الرسل أنهم قالوا لقومهم: (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) سورة إبراهيم/12.

من مواقف الصبر:

(63) رواه مسلم برقم 2564

(64) انظر: إحياء علوم الدين/ أبو حامد الغزالي 97/4 ط دار الحديث بالقاهرة سنة 1419هـ=1998م.

(65) انظر: رياض الصالحين/ للنووي هامش صفحة 30 ط سنة 1424هـ=2003م-الأفق- بيروت.

اذكر ثلاثة مواقف لرسل أوذوا فصبروا على الأذى.

نماذج من الصبر

الصلاة طاعة
المسلم مأمور بالصلاة
مأجور على إقامتها
محاسب على تضييعها
ينهض إليها بنشاط وسرور
يؤديها في وقتها
يحرص على أركانها وسننها
يحرص على الخشوع فيها
يحرص أن تكون الصلاة حكماً على أعماله
يحمد الله على أن وفقه إليها
يسأل الله أن يقبلها منه.
يستغفر الله من أي نقص حصل فيها.

شرب الخمر معصية
المسلم منهي عن شرب الخمر
مأجور على تركها
محاسب على شربها
يكف عنها برضا وسرور.
يبتعد عن أماكن شربها
يبتعد عن رفقة السوء وموائد الحرام
يحذر الآخرين منها, ويبين لهم ضررها
يحمد الله على إكرامه بالبعد عن المعصية

المرض مصيبة عظيمة
إذا مرض المسلم يعلم أن المرض مكتوب عليه
يتداوى ويأخذ بالأسباب
يصبر على المرض فلا يكثر من الشكوى والضجر
يحتسب الأجر عند الله تعالى
يعلم أن الله سيعطيه الأجر العظيم على صبره
يعلم أنه إن لم يصبر فلن يؤدي ذلك إلى رد القضاء
ولكنه سيضيع أجره
لذلك سيصبر ويحتسب.
يحمد الله أن رزقه الصبر

الصبر والمعاني المتصلة به

الصبر نوعان: بدني ونفسي. فالنوع البدني إما بالفعل مثل تعاطي الأعمال الشاقة، أو بالاحتمال كالصبر على

الألم الشديد.

والنفسى يكون بالكف عما تشتهيه النفس ويدعو إليه الهوى. وهو يتفرع إلى أمور:

- فإن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة.
 - وإن كان صبراً في احتمال الغنى سمي ضبط النفس.
 - وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حليماً.
 - وإن كان في قتال سمي شجاعاً.
 - وإن كان صبراً عن فضول العيش سمي زهداً.
 - وإن كان صبراً على القليل. سمي قناعة.
- وبهذا يتبين أن أكثر الأخلاق الإيمانية داخله في الصبر.

فضيلة الصبر:

وقد ورد في بيان فضيلة الصبر آيات وأحاديث كثيرة، وهي في مجموعها تدل على أن للصبر فضلاً عظيماً ومكانة رفيعة في الإسلام، كما أن الصبر مدرسة تتربى فيها نفس المسلم على مكارم الأخلاق وأحسن الشرائع والصفات، فمن ذلك قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (فاصبر كما صبر أولوا العزم ولا تستعجل لهم..) سورة الأحقاف:35 وقوله للمؤمنين: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)سورة آل عمران:200.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (66)

وقال أيضاً: "إن الله عز وجل يقول: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه -يعني عينيه- فصبر عوضته منهما الجنة" (67)

وللصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء أقوال في بيان فضيلة الصبر وأهميته منها:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا صبرت مضى أمر الله وكننت مأجوراً، وإذا جزعت مضى أمر الله وكننت مأزوراً. (68)

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما أنعم الله على عبد من نعمة وانتزعها منه فعوضه عنها صبراً إلا كان العوض أفضل من الذي انتزع منه، فإن الله تعالى جعل لكل شيء من الأجر والثواب حساباً معدوداً وهداً معدوداً إلا الصبر فقد جعل أجره بغير حساب (69). قال الله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

[سورة الزمر:10].

قصص عن الصبر

(66) رواه مسلم برقم 2999

(67) رواه البخاري برقم 5653

(68) انظر: حل العقال/ لابن قضيبة البان ص42.

(69) انظر: حل العقال/ لابن قضيبة البان ص40.

1- جاءت امرأة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، فقال لها: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر، ولكنني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها. (70)

هذه المرأة كانت مصابة بالصرع، فإذا جاءت نوبة الصرع سقطت على الأرض دون شعور منها، وقد ينكشف بعض جسمها، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها، لكن النبي خيرها بين أن يدعو لها فتبرأ من الصرع، وبين أن تصبر على هذا البلاء ويضمن لها دخول الجنة، فاختارت الصبر رغبة في الجنة، ولم يمنعها ذلك أن تطلب من النبي أن يدعو لها ألا تتكشف، لأن الدين يدعو إلى ستر العورات. ولذلك كان ابن عباس يقول لعطاء بن أبي رباح: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي فقالت له: إني أصرع..

2- كان لأبي طلحة ولد فمرض واشتد به المرض، فخرج أبو طلحة لعمله، ومات الولد، فلما رجع أبو طلحة سأل أم سليم عن الصبي، فقالت له: هو أسكن ما كان، ولم تخبره أنه مات، ولم تظهر حزناً أو بكاءً على ولدها، وهيات لزوجها طعامه فأكل، وتزينت له حتى أصاب منها، فلما فرغ قالت له: يا أبا طلحة، أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك، فغضب أبو طلحة وقال: تركتني حتى تلتطخت ثم أخبرتني بابني؟ فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بارك الله لكما في غابر ليلتكما)، فحملت أم سليم وأنجبت غلاماً مباركاً، وكبر الغلام وبارك الله في ذريته فكان له تسعة من الأبناء كلهم قد قرأوا القرآن. (71)

يؤخذ من هذه القصة:
- أن الصبر خلق عظيم والتحلي به يورث النفس رضى بقضاء الله وإيماناً بالله سبحانه.
- أن موقف هذه المرأة موقف عظيم رغم أنها فقدت ابنها لكنها لم تجزع بل صبرت وخفت المصاب عن زوجها.
- عاقبة الصبر وأن الله تعالى يعوض الصابرين خيراً مما فقدوا، ويعطيهم الجزاء العظيم في الآخرة.

3- جاء بعض الصحابة يشكون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصيبهم من المشركين من الإيذاء والضرب، وطلبوا منه أن يدعو لهم بأن ينصرهم على أعدائهم ويخلصهم منهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين لأصحابه أن دعوة الإسلام تحتاج إلى التحمل والصبر والعمل المتواصل حتى يتم النصر، لا أن يقعدوا في بيوتهم، فقال لهم: " كان فيمن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه.. " (72)

قصة الغلام والساحر

(70) رواه البخاري برقم 5652 ومسلم برقم 2576

(71) رواه مسلم برقم 2144

(72) رواه ابو داود برقم 2649 وصححه الالباني برقم 2649.

ارجع إلى تفسير سورة البروج وانظر القصة الواردة في ذلك عن الملك والساحر والغلام، واستخرج ما فيها من نماذج للصبر

مواطن الحاجة إلى الصبر

المسلم بحاجة إلى الصبر في كل حال من أحواله، لأن جميع ما يمر به لا يخلو من شيئين:

- ما يوافق هوى النفس كالصحة والسلامة والمال والرزق والجاه...
 - ما لا يوافق هوى النفس كالقيام للطاعات، والبعد عن المعاصي، واحتمال المصائب..
- فإذا رزق المسلم الصحة والسلامة والمال.. كان مطلوباً منه أن يصبر، بأن يستخدم هذه النعم في طاعة الله ورسوله، ويمنع نفسه من الانجرار وراء المعاصي والآثام. ولا شك أن الصبر على النعم أشد وأعظم من الصبر على الحرمان.

كيف يكون الصبر

بين كيف يكون الصبر عند كل من النماذج التالية:

- شاب صحيح البدن قوي الجسم عنده مال وفراغ كثير.
 - رجل معروف بين الناس بجاهه ومكانته.
 - رجل ابتلي بفقد عينيه
 - امرأة ابتليت بفقد زوجها ولها منه أطفال صغار.
 - فقير رزقه الله المال الكثير فجأة فصار غنياً
- الأمر المعينة على الصبر

الصبر خلق من الأخلاق التي يمكن أن يعتادها الإنسان ويتعلمها بالتدرج، ويأخذها شيئاً فشيئاً حتى يتمكن منها، ويتخلق بها، فإذا أراد المسلم ذلك فعليه أن يقوم بما يلي:

- مجاهدة النفس وحملها على ما تكره من الأمور والتكاليف، ويعين على ذلك أن يطمع الإنسان نفسه بالثواب الذي أعدّه الله تعالى لمن جاهد نفسه وصبر، ويحذر نفسه من عقاب الله إذا ترك الصبر وسارع إلى فعل المحرمات.
- اليقين بأن ما أصاب المسلم لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الجزع والسخط لن يرد القضاء.

- توطين النفس على الرضا بما قدر الله تعالى، والتسليم لأمره.

نشاط:

كيف أعود نفسي على غض البصر؟

مجاهدة النفس وإقناعها بأن هذا النظر إلى ما حرم الله تعالى معصية.

وأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، يصيب القلب فيدخل فيه الشهوة.

وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن ترك النظرة المحرمة ابتغاء وجه الله عوضه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه.

وأنه لو نظر وأمعن النظر لم يقض شهوته، ولم يرح نفسه بل جلب لها المتاعب بما يدخل قلبه من الخواطر السيئة والتفكير السقيم. مما يشتت ذهنه ويحرمه لذة الخشوع.

وأن ما وعده الله به في الجنة خير وأبقى مما يمكن أن يراه في الدنيا. كما أخبر النبي أن المرأة من نساء أهل الجنة لو اطلعت على الدنيا لحجب نورها ضوء الشمس والقمر، ولملاً عطرها ما بين المشرق والمغرب، وأن خمارها الذي تغطي به رأسها خير من الدنيا وما فيها. فمن أطلق لبصره العنان لينظر فيما حرم الله حرم من ذلك النعيم، ومن غض بصره كان مستحقاً لذلك الثواب العظيم.

المبحث الثامن: الرضا والقناعة

الحديث عن الرضا يتطلب تناول أمرين هما: رضا الله تعالى عن عبده، ورضا العبد عن الله سبحانه وتعالى. والرضا بالشيء اختياره وقبوله. يقال: رضيت الأمر ورضيت به، ورضيت عنه، ورضيت عليه. إذا قبلته واخترتة، والمصدر من ذلك الرضا والرضاء والرضوان والمرضاة. ويقال: ارتضى فلاناً لصحبته إذا رضيه واختاره، وراه أهلاً لها، وتراضى فلان وفلان إذا توافقا أو رضيا. (73)

والرضا عن الله سبحانه ثمرة من ثمار المحبة، ومقام من أعلى مقامات المقربين، ومعناه أن يرضى العبد بقضاء الله تعالى، ويسلم له بما يجريه عليه دون اعتراض أو جزع أو رغبة في أن يجري القضاء بغير ما هو جار. وليس من الرضا السكوت على الفجور والمعاصي وترك إنكار المنكر والاعتراض عليه.

فضيلة الرضا

لقد رفع الله تعالى الرضا فجعله غاية المنى ومنتهى الأمل الذي يطلبه أهل الجنة، وجعله أعظم من الجنة وما فيها فقال: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) [التوبة: 72].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله عز وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً". (74)

فإذا كان رضا الله سبحانه بهذا المقام وهذه الفضيلة، فجدير بكل مسلم أن يسعى ليله ونهاره لينال رضا الله سبحانه، وينعم به فيعيش حياته راضياً مرضياً، ويلقى ربه يوم القيامة فيكرمه برضاه ويسعده بقربه، ويجعله عنده في مقعد صدق، ومقام أمين.

رضا العبد عن ربه سبحانه

(73) انظر: المعجم الوجيز (رضي) ص 267.

(74) رواه البخاري برقم 6549 ومسلم برقم 2829

كيف يحصل العبد على رضا مولاه؟ وكيف يصيح من الذين قال الله تعالى فيهم: (رضي الله عنهم ورضوا عنه)؟ وكيف يكون من الذين ينادون يوم يلقون ربهم: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) [الفجر: 27- 30].

إن هذا الأمر يحتاج إلى أن يتحقق العبد بمقام الرضا عن الله سبحانه، والرضا كما سبق ثمرة من ثمار المحبة، وكلما ازداد العبد حباً لله تعالى، ازداد رضا بقضائه وأمره.

ويدل على الرضا أمور منها:

1- الصبر على البلاء، بحيث لا يشكو ولا يجزع للمصيبة، بل يراها خيراً خصه الله به ليرفع به درجته. ويشهد لهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له". وقوله سبحانه: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [التوبة: 51]. فإن النبي مع علمه بأن هذه مصيبة إلا أنه أمر أن يقول: كتب الله لنا، ولم يقل: علينا، لأن ما كتبه الله لا يكون إلا خيراً.

2- تسليم الأمر لله سبحانه، والإكثار من ذكره واستغفاره، والإكثار من قول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

3- الرضا بالحال التي جعله الله فيها، سواء أكان في فقر أم في غنى، في صحة أم في مرض، وسواء رزق الذرية أم حرماً..

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الفقر والغنى مطيبتان ما أبالي أيهما ركبت؟ إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل". (75)

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة - وكان قد كف بصره - جاءه الناس يسألونه أن يدعو لهم - وكان مجاب الدعوة - قال عبد الله بن السائب: فقلت له: يا عم، أنت تدعو لناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك، فتبسم وقال: يا بُني، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري. (76)

رضا الله سبحانه

إذا تحقق العبد بالرضا عن الله سبحانه، وصل إلى حالة من السعادة والطمأنينة لا مزيد عليها، فمهما واجهه من صعوبات ومشكلات، أو أصابه من هم أو غم، فإنه لا يجزع ولا يضطرب، بل يسلم أمره إلى الله سبحانه ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما كتب عليه فلا بد أن يقع، وما لم يكتب عليه لا يمكن أن يقع، ومن هنا كان قول ابن تيمية رحمه الله، وهو يواجه أعداءه الذين هددوه بالقتل أو السجن أو الطرد: " ما يفعل أعدائي بي، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن سجنوني فسجني خلوة، وإن طردوني وأخرجوني فأخرجني سياحة" ولا يملك الأعداء أن يفعلوا أكثر من ذلك، والمسلم يملك أن يكون مع الله تعالى في كل أحواله.

(75) انظر: إحياء علوم الدين 4/494.

(76) انظر: إحياء علوم الدين 4/495.

وكان بلال رضي الله عنه يواجه شدة التعذيب والإيذاء وهو صابر محتسب، فما الذي جعله يصبر على حر رمضاء مكة، والصخور التي توضع فوق صدره، والسياط التي يكوى بها جلده؟ إنه كان متصل القلب بربه، واثقاً بما عنده، راضياً عنه، ولذلك قال لجلاديه: أحد أحد، والله لو أعلم كلمة تغيظكم أكثر منها لقلتها. (77)

ثمرات الرضا

- إذا تحلى المسلم بالرضا عن الله سبحانه فإنه سيقطف ثمرات طيبة أهمها:
- أنه يعيش سعيداً مطمئناً، هادئ النفس لا يجزع ولا يضطرب.
 - أنه يواجه الحياة بعزم وثبات وقوة يقين، فهو يعلم أنه لا يكون إلا ما أراد الله تعالى، والذي قضاه الله هو الخير.
 - أنه ينال رضا الله سبحانه، ويفوز بجنته.
 - أنه يتخلص من كل الأمراض التي تصيب غيره كالقلق والتوتر والخوف..
 - أنه يعيش كريم النفس قوي الإرادة، عفيفاً يبتعد عما حرم الله، مبادراً إلى الخيرات.
 - أنه ينال محبة الناس وذكورهم له بالثناء الحسن.

القناعة

القناعة مصدر من قَنَعَ قَنوعاً إذا سأل الناس الإحسان راضياً بالقليل، قال تعالى: (وأطعموا القانع والمعتر) الحج:36. ومن قَنَعَ قَنعاً، وقناعةً إذا رضي بما أعطي، فهو قانع. وأقنعني هذا الشيء أي أرضاني، والقُنعانُ من يرضى باليسير. (78)

حرص الإسلام على تربية المسلمين على القناعة والرضا باليسير، وترك اللهفة على الفضول، وذلك لأن الإنسان إذا رُزق القناعة استراح من الهم والقلق على الدنيا، وفرغ نفسه لعبادة الله سبحانه، فالإنسان لو جمعت له الدنيا بكل ما فيها، لا يأخذ منها في يومه إلا ما يملأ بطنه، ولا يلبس من لباسها وزينتها إلا ما يكفي لستر عورته ووقايته من الحر والبرد، فلم الحرص على جمع المال الكثير وهو لا يدري أيعيش إلى غد أم يموت من يومه. من هنا جاءت التربية الإسلامية لتقول للناس من خلال بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيها". (79)

وفي حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه".

(80)

(77) انظر تهذيب سيرة ابن هشام

(78) انظر: المعجم الوجيز (قنع) ص517-518.

(79) رواه الترمذي برقم: 2346 وقال حسن غريب

(80) رواه مسلم، برقم 1054

فالقناعة قيمة عظيمة، والرسول صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه عليها، ويقدم لهم النماذج الحية التي تجعلهم يمارسون القناعة واقعاً حياً. فهذا حكيم بن حزام رضي الله عنه يروي ما حدث له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر غير طريقته في الحياة والتفكير. ونقله من إنسان محب للمال طامع فيه إلى إنسان قانع راض متعفف. يقول حكيم: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع. واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل، فقال: يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أنني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى تويء". (8 1)

ويقول عمرو بن تغلب رضي الله عنه: "أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال، أو سبي فقسمه، فأعطى رجلاً وترك رجلاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أتى عليه، ثم قال: أما بعد: فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي. ولكني إنما أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن تغلب" قال عمرو: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم". (8 2)

معاني الكلمات
بسخاوة نفس: بغير مسألة ولا إلحاح ولا شره.
بإشراف نفس: بتطلع وحرص على أخذه.
اليد العليا خير من اليد السفلى: المنفق المعطي خير من الآخذ، وفي هذا تعليم للمسلم أن يكون هو المعطي، وأن يتعفف عن المسألة والتعرض لصدقات الناس.
لا أرزأ أحداً: أي لا أطلب منه ولا أخذ من ماله.
الفء: الغنيمة. عتبوا: أي وجدوا في أنفسهم من العتب على الرسول فقالوا: لم أعطى غيرنا ولم يعطنا؟ الهلع: أشد الجزع، ويعني هنا التلهف على المال والحرص على أخذه. حمر النعم: الإبل التي يميل لونها إلى الحمرة، وهي أفضل الأموال عند العرب.

إن ما فعلته التربية العملية على القناعة في نفس حكيم بن حزام وعمرو بن تغلب، هو الغاية التي هدف إليها الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية بقية الصحابة على هذه القيمة الرفيعة التي تدفع المسلم إلى أن يكون قانعاً راضياً، إذا جاءه المال أنفق بعضه في الحلال، وعرف حق الله فيه فأعطى الفقراء والمحتاجين، وإن لم يأته المال صبر ورضي فلم يسخط ولم يتضجر، وفي الوقت نفسه يسعى إلى كسب الحلال ليكون منتجاً متصدقاً، وتكون يده هي العليا، ويستغني عن مسألة الناس.

(81) رواه البخاري برقم 1472

(82) رواه البخاري برقم 923

نشاط:

تقوم مجموعة من الطلبة برحلة يرافقهم مدرس التزكية الإيمانية، وفي أثناء الرحلة يخبرهم أنه سيجري لهم اختباراً في الرضا والقناعة.

وفي الوقت المناسب يقوم المدرس بتوزيع الطعام والفاكهة على الطلاب، بحيث يخص بعضهم بالكثير، ويعطي بعضهم قليلاً، ويحرم بعضهم، ثم يعلن أنه لم يبق عنده شيء من الطعام أو الفاكهة.

يلاحظ المدرس تصرفات الطلبة، من يعطي الآخرين؟ من يطلب من الآخرين؟ من يتضجر من القسمة؟ من يتناول نصيبه بنهم؟ من يسكت ويرضى؟ ويسجل هذه الملحوظات ثم بعد أن ينتهي تناول الطعام يقوم المدرس بإعلان النتائج وبيان من قنع ورضي ممن لم يقنع. ويقدم لهم بعض القصص من حياة الصحابة رضي الله عنهم.

المبحث التاسع: الزهد والورع

خلق الله الإنسان وجعله مكلفاً بعمارة الأرض، وأمره أن يعبد الله ويوحده، وسخر له الكون بما فيه وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة، وأعطاه من الخيرات والثروات ما يقضي له حاجته ويؤمن له متطلباته.

ولما كانت الدنيا بما فيها من شهوات ورغبات، صارفة للإنسان في غالب الأحيان عن عبادة الله تعالى وطاقته، فقد وردت الآيات والأحاديث التي تحذر الناس من الاغترار بالدنيا والركون إلى متعتها ولذاتها، وتحثهم على الزهد فيها، والإقبال على الآخرة والعمل لها.

ولا يفهم من هذا أن الإسلام يحرم التمتع بالخيرات والملذات، بل إنه يبيح للناس أن يأكلوا ويتمتعوا ويتزينوا ضمن الحدود التي بينها، ولكنه يحذر من الإسراف في الملذات المباحة، وتجاوز الحلال إلى الحرام، و التنافس على الدنيا، لأن ذلك مما يشغل المسلم عن عبادة الله ويوقعه في حب الدنيا وكراهة الموت، وترك العمل للآخرة.

وفي هذا الضوء يمكن أن تفهم الآيات والأحاديث التي تزهد في الدنيا وتحذر من الاغترار بها، فليس مقبولاً من المسلم أن يترك الدنيا ويعرض عنها تماماً، وليس مقبولاً منه أيضاً أن يقبل عليها ويجعلها همه وغايته، بل المطلوب أن يوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، وأن يزهد فيما يزيد عن حاجته، ويستخدم الدنيا لتوصله إلى الآخرة.

جاء في كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية الزهد والورع والعبادة ، تعريف للزهد قال فيه: **الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة وثقة القلب بما عند الله، لأن الله تعالى يقول لكي (لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) فهذا صفة القلب.**

حقيقة الزهد

الزهد في الدنيا مقام شريف، يشتمل على **علم وحال وعمل**، فالحال هو ما يسمى زهداً، وهو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه. فكل من رغب عن شيء لينال ما هو خير منه فهو زاهد في الشيء الذي تركه، محب للذي هو خير. وبناء على ذلك يكون حال الزهد مشتملاً على ثلاثة عناصر هي:

راغب، ومرغوب عنه، ومرغوب فيه، ويشترط في المرغوب عنه أن يكون مما تحبه النفس، كالمال والمتاع، إذ لا يتصور أن يقال: فلان زاهد في الرمل أو الحجارة، لكن يقال: زاهد في المال والمتاع.. (8 3)
ويشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب الرغبة على الراغب فيترك الشيء الذي بيده لينال ما هو خير منه.

أما العلم الذي يثمر هذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً مقارنة بالمأخوذ، وبقدر قوة اليقين والعلم بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة عن الدنيا والحرص على الآخرة، لأن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، ولذلك قال الله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..)سورة التوبة:111].
وقد يعلم هذه الحقيقة كثير من الناس، لكنهم لا يزهدون في الدنيا لضعف همتهم، أو لغلبة الشهوة عليهم، أو لاغترارهم بوعود الشيطان حتى يأتيهم الموت وهم غافلون. (8 4)

وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك المرغوب عنه، وهذا يعني أن يزهّد المسلم بالدنيا بأن يخرج حبها من القلب، ويدخل حب الطاعات التي توصله إلى الآخرة، ويخرج من يده وعينه وسائر جوارحه التعلق بالدنيا، فإذا فعل ذلك فليستبشر ببيعه الذي بايع به.

قيل لابن المبارك: يا زاهد. فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، جاءته الدنيا راغمة فتركها،
وأما أنا، ففي أي شيء زهدت؟ (85)

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: اعلم: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أسباب كل طاعة، والزهد فيها رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزواتها عن العبد ويسمى ذلك (فقراً)، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهداً. (8 6)

فضيلته

حرص الإسلام على ترغيب الناس في الآخرة وحثهم على طلبها والإقبال عليها، وحذرهم من الاغترار بالدنيا والركون إليها، والتلهي بها عن الآخرة، والآيات والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، منها:
قال الله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)ليونس:24].
وقال تعالى: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)الحديد:20].

(83) انظر: إحياء علوم الدين 311/4.

(84) انظر: إحياء علوم الدين 312/4-313.

(85) انظر: إحياء علوم الدين 312/4.

(86) مختصر منهاج القاصدين/ لابن قدامة المقدسي.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال: "إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها." (87)

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فليُنظر به يرجع." (88)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو كان لي مثل أحد ذهباً لسرني أن لا تمر عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين." (89)

أقسامه

قال ابن القيم رحمه الله تعالى، في كتابه الفوائد :

الزهد أقسام

- زهد في الحرام وهو فرض عين.
 - وزهد في الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة فان قويت التحقت بالواجب وان ضعفت كان مستحباً
 - وزهد في الفضول
 - وزهد فيما لا يعنى من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره
 - وزهد في الناس
 - وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله
 - وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى الله وفي كل ما شغلك عنه،
- وأفضل الزهد إخفاء الزهد وأصعبه الزهد في الحظوظ. (90)

نشاط: كيف نتعود الزهد؟

حاول أن تقوم ببعض الأعمال التالية:
صم يوماً من أيام الصيف الحارة وانو في قلبك أنك تصوم هذا اليوم ليجيرك الله تعالى من حر جهنم.
أفطر على تمر وماء وقليل من الطعام، وانو أن تتصدق ببعض المال الذي كان يمكن أن تنفقه على إفطارك.
ضع في حسابك أن هذا المال الذي حرمت نفسك من التمتع به في الدنيا وأعطيته لمحتاج، سوف تلقاه يوم القيامة أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.
كرر هذا العمل بين فترة وأخرى، وتعاون مع بعض زملائك على إفطار جماعي متقشف.
ستجد أن لهذا العمل أثراً تربوياً كبيراً على نفسك، بحيث تزداد إيماناً وطمأنينة ورضاً، وتزداد رغبة في عمل الخير، وحب المساكين، والتودد إلى الناس.
تذكر أن الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله تعالى، أنفعهم لعياله.

(87) رواه البخاري برقم 1465

(88) رواه مسلم برقم 2858

(89) رواه البخاري برقم 6445

(90) الفوائد لابن القيم.

الورع

الورع هو التوقي عن أكل الحرام، وقد يطلق أيضاً على ترك بعض الحلال حذراً من الوقوع في الحرام. يقال: تورع عن الأمر، أو تورع من الأمر، إذا تركه خوفاً من أن يلحقه الحرج بالوقوع في الحرام. (9 1)
عن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس ". (9 2)
الحلال والحرام:

لقد بين الإسلام الحلال والحرام، وأمر باكتساب الرزق من الحلال. فقال تعالى: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً..)[البقرة:168]. وحذر من أكل الحرام وكسبه فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل..)[النساء:29]. فالمطلوب من المسلم أن يسعى لكسب الحلال، ويتحراه، ويتجنب الحرام ويفر منه. وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن "الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه..". (9 3) وهذا الحديث أصل في التفرقة بين الحلال والحرام، والتحذير من الشبهات التي يمكن أن تؤدي إلى الوقوع في الحرام. لأن الذي لا يتورع عن الشبهات ولا يتجنبها، يوشك أن يقع في الحرام، أما الذي يبتعد عن الشبهات فهو الورع الذي يحفظ دينه، ويصون عرضه عن كلام الناس فيه.

الفرق بين الزهد والورع

الفرق بين الزهد والورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة. والمسلم محتاج إليهما معاً، فحاجته إلى الزهد لأنه إذا زهد في الدنيا أقبل على الآخرة واستعد لها، وحاجته إلى الورع لأنه إذا تورع عن أكل الحرام، وابتعد عن الشبهات سلم له دينه، وعرضه، ولقي ربه وهو راض عنه.
الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا الورع

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد ثمرة في الطريق فقال: "لولا أنني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها". (9 4)

هذا الحديث يبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على أن لا يضيع شيء من المال مهما كان قليلاً، ولو كانت ثمرة واحدة، فالثمرة مال له قيمته، ويمكن أن تسكت جوعة جائع، ويمكن أن يدخل المسلم الجنة بأقل من ذلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: اتقوا النار ولو بشق ثمرة" ومن جهة أخرى فإن النبي وإن كان

(91) انظر هذا المعنى في: المعجم الوجيز (ورع) ص665 طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(92) رواه الترمذي برقم 2451 وقال: حديث حسن غريب .

(93) رواه البخاري برقم 52 ومسلم برقم 1599

(94) رواه البخاري برقم 2431 ومسلم برقم 1070

جائعاً، ومحتاجاً إلى الطعام فإنه لا يرضى لنفسه أن يأكل من الصدقات التي يجوز أن يأكلها الفقراء والمحتاجون، فالرسول وآل بيته لا يأكلون الصدقة.

وعن الحسن رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك". (95) فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن ترك كل أمر نرتاب فيه، ونخشى أن يكون فيه شيء من الحرام، ونأخذ بالأمر الواضح الذي لا ريبه فيه، وبذلك نأمن من الوقوع في الحرام. وقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجاً حياً للورع والكف عما حرم الله، وترك التعم بالحلال والمباح زهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة، فكان يعيش مع أزواجه فتمر بهم الأيام والليالي، لا يوقدون ناراً، ولا ينضجون طعاماً، وإنما يكتفون بالتمر والماء، ولو أراد الرسول لكان أكثر الناس مالاً ومتاعاً، ولكنه كان يأتيه المال فيسارع إلى إنفاقه على الفقراء والمحتاجين، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم.

نشاط:

اذكر قصة أو حادثة من حياة الصحابة رضوان الله عليهم تدل على الورع.

المبحث العاشر: التقوى والاستقامة

التقوى زاد المسلم الذي يعلم أنه يعبر طريقه مسافراً إلى الآخرة، وأنه عما قريب سيقف بين يدي الله سبحانه، ومسئول عن كل عمل عمله، وعن كل ما اقترفت يده، وكسبت جوارحه، فهو لذلك في رقابة دائمة، ونشاط متواصل، يعمل بالطاعات ويبادر إلى الخيرات، ويسعى إلى القربات، ويتجنب المحارم والمنكرات، ويتوقى الشبهات. إنه المسلم الذي ينتظر لحظة قدومه على ربه، ولقاءه معه، ومثوله بين يديه، فهو كمن علم أنه سيدخل على الملك، فإنه يبالي في الاستعداد، وتحسين هيئته، وبيتعد عن كل ما يكره الملك أن يراه أو يجده منه.

ومن كان حاله كذلك استقام أمره، وصلح حاله، وكان بعيداً عن التعرض للناس بالأذى، فسلم الناس من لسانه ويده، وأمنوه على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وإذا كان الناس جميعاً على هذه الشاكلة عاشوا حياة سعادة وطمأنينة، لا يحتاجون إلى شرطة تضبط سلوكهم، ولا إلى محاكم تفصل بينهم.

من هنا كان حرص الإسلام على تربية أبنائه على التقوى والاستقامة، فهذا هو الطريق الذي يحقق لسالكيه السعادة في الدنيا والآخرة، ويجعل الناس يعيشون حياتهم في رضا واطمئنان، بعيداً عن التوتر والقلق والخوف.

معنى التقوى

التقوى لغة مصدر من الفعل (وقى)، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، كما في قوله تعالى: (فوقاهم الله

شر ذلك اليوم) الإنسان:11. (96)

(95) رواه الترمذي برقم 2518 وقال: حديث حسن صحيح

(96) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ/4/384.

والتقوى شرعاً: حفظ النفس مما يؤثم، وذلك بترك المحظور المحرم، وكذلك بترك بعض المباح خوفاً من الوقوع في الحرام (97)، لقوله: "الحلال بين والحرام بين..... من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه". (98)

معنى الاستقامة

الاستقامة لغةً: مصدر من استقام، أي لزم الصراط المستقيم، واتبع الحق. قال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة..) (الفصلت:30).

وشرعاً: أن يلتزم المسلم دين الحق قولاً وعملاً، فيفعل ما أمره الله تعالى به، ويجتنب ما نهاه الله تعالى عنه. (99)

العلاقة بين التقوى والاستقامة

إن العلاقة بين التقوى والاستقامة هي علاقة بين السبب والنتيجة، فإن كل استقامة في سلوك الإنسان وأعماله الظاهرة، تدل على سبب، وقد يكون سبب الاستقامة الظاهرة عند الإنسان خوفه من العقوبة التي يفرضها القانون على المخالفين، أو رغبته في الظهور أمام الناس بمظهر من يستحق الاحترام والثقة، أما المسلم فإن السبب الذي يجعله مستقيماً في سلوكه الظاهر هو نفسه السبب الذي يجعله مستقيماً إذا كان بعيداً عن الناس، وما ذاك إلا تقوى الله سبحانه وتعالى. فالمسلم الذي يتقي الله ويخشاه، لا يبالي إذا كان بين الناس أم كان خالياً، لأنه يراقب الله تعالى في السر والعلانية، ويخشاه في أحواله الظاهرة والباطنة. ومن هنا كان المسلم غير محتاج إلى من يراقبه في عمله، لأنه لا يمكن أن يغش أو يخون، أو ينتابه تقصير أو إهمال، فهو يراقب الله تعالى ويخشاه، ويعمل ابتغاء وجهه، ورغبة في رضاه.

قال العلماء: إن للتقوى طريقاً إذا سلك تُصبح التقوى ملكة في القلب، ينبثق عنها سلوك على ضوء الكتاب والسنة. (100)

وهذا القول يبين - بوضوح - العلاقة بين التقوى والاستقامة، فالتقوى عملٌ قلبي، والاستقامة سلوك ظاهر في القول والعمل، لكنه سلوك منبثق عن التقوى.

وهذا جدول يوضح الفرق بين التقي المستقيم، وبين غيره من الناس

البيان	الإنسان التقي المستقيم	الإنسان غير التقي
1- عامل في مصنع يطلب منه أن يلتزم بالعمل لمدة 8 ساعات يومياً.	يلتزم بالعمل والمدة، ويخلص في العمل سواء أكان هناك من يراقبه أم لا.	يلتزم إذا وُجد من يراقبه، ويغش ويتقاعس عن العمل إذا غاب من يراقبه.
2- محاسب في شركة وبين يديه أموال كثيرة، ويمكنه أن يتصرف بها، ويحقق أرباحاً كثيرة دون علم الشركة.	يؤدي هذه الأموال كاملة، ولا يتصرف بها إلا بإذن أصحابها.	يختلس ما يستطيع من هذه الأموال، ويتصرف بها بغير إذن أصحابها.

(97) المفردات في غريب القرآن ص530.

(98) رواه البخاري برقم 2051

(99) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ 417/3.

(100) المستخلص في تركية الأنفس/ سعيد حوى ص299، دار السلام بالقاهرة، ط9 سنة1423هـ=2002م.

يتصرف كما يريد, فيبيع من ألبانها دون علم صاحبها, ويأخذ الثمن لنفسه.	لا يأخذ شيئاً إلا بإذن صاحب الغنم, لأنه يخاف الله تعالى.	3- راع يرعى الغنم لجماعة من الناس, ويمكنه أن يتصرف ببعض ألبانها ومنافعها دون أن يطلع عليه أحد من الناس.
يخفي كثيراً مما أنتجه, ويأخذه لنفسه, ولا يعطي صاحب السيارة إلا القليل, ولا يحافظ على السيارة.	يؤدي كل ما أنتجه لمالك السيارة, ولا يأخذ إلا أجرته المتفق عليها, ويحافظ على السيارة.	4- سائق سيارة أجرة, والسيارة ليست ملكاً له, فهو يعمل مقابل أجر معلوم أو نسبة مما ينتجه.

ومن خلال الجدول السابق يمكن إدراج جميع الأعمال والوظائف التي يعمل فيها الناس, وبيان الفرق بين التقي المستقيم الذي يحافظ على العمل, ويقوم به خير قيام, وبين الإنسان الذي لا يهتم إلا أخذ المال وتكثيره, سواء كان من حلال أم من حرام, وعندئذ يدرك صاحب العمل أهمية أن يبحث عن إنسان تقي مستقيم, ليقوم بذلك العمل.

من أحاديث الرسول في التقوى والاستقامة:

- 1- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "المسلم أخو المسلم, لا يظلمه ولا يحقره, ولا يخذله, التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) .." (101)
- 2- عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يخطب في حجة الوداع, فقال: "اتقوا الله, وصلوا خمسكم, وصوموا شهركم, وأدوا زكاة أموالكم, وأطيعوا أمراءكم, تدخلوا جنة ربكم". (102)
- 3- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي قال: "إن الدنيا حلوة خضرة, وإن الله مستخلفكم فيها, فينظر كيف تعملون, فاتقوا الدنيا, واتقوا النساء, فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". (103)
- 4- عن أبي عمرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله, قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: قل: آمنتُ بالله ثم استقم". (104)

ثمرات التقوى والاستقامة:

لا شك أن الإنسان إذا عمل عملاً، توقع أن يكون له نتائج وثمرات, والمسلم حين يلتزم التقوى والاستقامة, فإنه يحصل من المنافع والثمرات ما لا يعلمه إلا الله سبحانه, لكن أبرز هذه الثمرات هي:

- 1- التخلص من الحرام.
- 2- راحة القلب وطمأنينته.
- 3- القرب من الله تعالى, واستشعار لذة مناجاته.
- 4- الحياة الطيبة الحافلة بالرضا والسعادة.

(101) رواه مسلم برقم 2564

(102) رواه الترميذى برقم 616 وقال حديث حسن صحيح

(103) رواه البخارى برقم 6427 و مسلم برقم 2742

(104) صححه الالباني برقم 4395

- 5- صلاح المجتمع إذا كثر فيه الأتقياء الصالحون، ولم يعد فيه من يعتدي على الناس. ويؤذيتهم.
- 6- حب الناس للعبد التقي، وحرصهم على التعامل معه.
- 7- الفوز برضوان الله تعالى، ودخول الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

اقرأ

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتجول في المدينة المنورة ليلاً، يتفقد الرعية، وبعد أن تعب من المشي استند إلى جدار بيت، فسمع امرأة تقول لابنتها: قومي يا بنية قبل أن يطلع الفجر، فاخطي اللبن بالماء، حتى نبيعه في الصباح. فقالت البنت لأُمها: يا أمه، أليس قد نهى أمير المؤمنين عن خلط اللبن بالماء؟ قالت الأم: وأين أمير المؤمنين الآن؟ قالت البنت: إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله سبحانه يرانا. فمضى عمر بن أن سمع هذا الحوار، وفي الصباح جمع أبناءه وقال لهم: من منكم يريد الزواج؟ قال عاصم: أنا. فوصف له ذلك البيت، وأمره أن يخطب تلك البنت ويتزوجها، فإنها ستلد له ولداً يسود العرب. فذهب عاصم فتزوجها، فكان من أحفادها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

المبحث الحادي عشر: المحاسبة والمراقبة

المحاسبة تعني مراجعة النفس بما لها وما عليها، ومراقبتها كذلك، بأن يحاسب المرء نفسه ويراقب سلوكها، فإن كانت محسنة زاد في إحسانها وشجعها، وإن كانت غير ذلك أوقفها عند حدها وعطفها على الخير والإحسان.

أو هي: عملية متابعة، إما ذاتية من الفرد لنفسه، أو من قبل الفرد للجماعة، أو العكس. بقصد تعزيز الصواب وتصحيح الخطأ، وتقويم الاعوجاج.

- ويمكن القول أيضاً بأنها: عملية مراقبة ومتابعة وتقويم لأداء الفرد بهدف تصحيح المسار، وإكمال النقص، وتصويب الخطأ، أو تعزيز الإيجابيات، واستبعاد السلبيات، وقد تكون من الفرد لنفسه، أو من الفرد للجماعة، أو من الجماعة للفرد، فهي بهذا محاسبة تبادلية.

أهمية محاسبة النفس

إن محاسبة النفس أمر في غاية الأهمية لكل مسلم، لأن النفس ميالة إلى الكسل والراحة، محبة للدعة والسكون، فإذا غفل المرء عن نفسه لم تنهض إلى العمل، ولم تجتهد في تحصيل الفضائل والكمالات، وإذا لم ينهها عن لئوها وعبثها انغمست في المتع والملذات، كما قال البوصيري رحمه الله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تظلمه ينظم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وقال أيضاً:

(105)

وإن هما محضاك النصح فاتهم

وخالف النفس والشيطان واعصهما

يقول الغزالي رحمه الله تعالى:

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمانة بالسوء، مائلة إلى الشر فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفضامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت.. وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبته، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك. (106)

أدلتها الشرعية:

تظاهرت النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة الشريفة على مشروعية المحاسبة للنفس وأهميتها، وفيما يلي بعض هذه النصوص

أ- من القرآن الكريم :

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتتظر نفس ما قدمت لغد.. الحشر/18.

(ولا أقسم بالنفس اللوامة.. القيامة/2. (وقفوه إنهم مسؤولون.. الصافات/24.

فالنظر فيما تقدم النفس يعد محاسبة لها ، وتذكر المرء بأنه سيوقف يوم القيامة ليسأل عما قدم.

ب- من السنة النبوية:

قال عليه الصلاة والسلام:

(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله). (107)

وقال: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس). (108)

وقال: (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه

وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه) (109)

وقد فهم الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح أهمية محاسبة النفس، وأثرها في تصحيح المسار وتقوية

القلوب من أدناس المعاصي والأخطاء، وهذه بعض أقوالهم في ذلك:

قال عمر رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف

عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر ، كذا الأكبر { يوماً تعرضون لا

تخفى منكم خافية }). (110)

(106) إحياء علوم الدين 5/

(107) رواه الترمذي برقم: 2459 وقال حديث حسن

(108) رواه ابن حجر العسقلاني برقم: 445 وقال إسناده حسن

(109) رواه الترمذي برقم: 2417 وقال حسن صحيح

(110) ابن كثير - المصدر: مسند الفاروق - الصفحة أو الرقم: 618/2

وقال الحسن البصري رحمه الله: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همه).

(111)

قال ميمون بن مهران رحمه الله: (لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه محاسباً أشد من محاسبة الشريك

لشريكه). (112)

للمرابطة ست مقامات هي:

المشاركة	المراقبة
المحاسبة	المعاقبة
المجاهدة	المعاقبة

والمرابطة وردت في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) [آل عمران: 200] وفي قوله صلى الله عليه وسلم: ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ويمحو به الخطايا؟ قالوا: بلى. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرباط فذلك الرباط فذلك الرباط.

نماذج من المحاسبة:

أ - محاسبة النفس:

❖ في غزوة تبوك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يتجهزوا لغزو الروم، وأخبرهم عن وجهته، وكان السفر بعيداً، والحر شديداً، وكانت بساتين النخل في المدينة المنورة قد أينعت ثمارها، ودنا قطافها، وطابت ظلالها، وبدأ المسلمون يتجهزون لاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتجهز الجيش وخرج به الرسول، وكان أبو خيثمة قد تأخر وتردد في الخروج، وفي أحد الأيام عاد من السوق إلى بستانه، فوجد امرأته وقد هيأت كل منهما عريشها، ورشته بالماء، وهيأت فيه طعاماً طيباً، وماءً بارداً. ولما رأى أبو خيثمة هذا المنظر، تذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وجيش المسلمين، فقال في نفسه: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحر والضح، وأبو خيثمة في ظل ظليل، وماء بارد، وزوجة حسنة. والله ما هذا بالإنصاف. ثم قال لامرأته: والله لا أدخل عريشاً إحداكما حتى تجهزا لي ناقتي فألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم. فجهزتا له ناقتة، وسار حتى لحق بالرسول، وشارك في تلك الغزوة.

(111)

(112)

❖ سمع بعض الصحابة عمر رضي الله عنه، وهو يقول لنفسه: "ويحك يا عمر، كنت تدعى عميراً، ثم قيل: عمر، ثم قيل أمير المؤمنين، والله لتتقين الله أو ليحاسبنك". (1 1 3)

وبعد أن طُعن اجتمع حوله الصحابة، وأخذوا يبشرونه بما له من الكرامة عند الله تعالى، ويعددون أعماله الجليلة في خدمة الإسلام، فقال: "وددت لو أنني خرجت منها كفافاً، لا لي ولا علي".
يروى أن أحد الصالحين كان يحاسب نفسه، فلما بلغ الستين من العمر أو فوقها بقليل حسب أيام عمره فوجدها (21500 يوماً) فتفكر ثم قال لنفسه، لو وقع مني كل يوم ذنب واحد لكنت قد عملت هذا العدد العظيم من الذنوب، فكيف وعندي كل يوم آلاف الذنوب؟ ثم خر مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو قد مات.
(1 1 4)

خطط برنامجك:

رتب لنفسك برنامجاً زمنياً تقسمه على الأعمال التي تريد القيام بها على مدار أسبوع، ثم حاول أن تسأل نفسك يومياً قبل أن تنام: ما الأمور التي أنجزتها من هذا البرنامج؟ وما الأمور التي تركتها؟ ثم اسأل نفسك: لماذا تركت هذا الأمر؟ ولماذا نسيت هذا الشيء؟
ثم امنع نفسك من النوم إلا بعد أن تتجز ما فاتك من برنامجك.

ب- محاسبة الجماعة للفرد، ومحاسبة المسؤول لمن هم دونه:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على تذكير أصحابه بعمل الخير، وتشجيعهم على فعل الخيرات وزيادة الطاعات والقربات، وهو بذلك يقدم لنا نموذجاً في تذكير أسرنا وأهلينا ومن حولنا بذلك، لأن الدال على الخير كفاعله، ومن دعا إلى هدى كان له مثل أجر صاحبه من غير أن ينقص من أجره شيء، ومن الشواهد على تذكير النبي لأصحابه:

❖ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أصبح منكم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر أنا. قال: فمن أطعم اليوم منكم مسكينا؟ قال أبو بكر أنا. قال فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر أنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة. رواه مسلم في صحيحه.

❖ سؤال النبي عليه الصلاة والسلام لبلال: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة فأني سمعت الليلة خشف نعليك في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي.
(1 1 5)

❖ سؤال النبي أصحابه عن صلى الفجر:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الصبح فقال: أشاهد فلان؟ قالوا: لا. قال أشاهد فلان؟ قالوا: لا. قال: إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون

(113)

(114) انظر: إحياء علوم الدين 63/5.

(115) رواه البخاري برقم 1149 ومسلم برقم 2458.

ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركب، وإن الصف الأول على مثل الملائكة ولو علمتم ما في فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل. وكل ما كثر فهو أحب إلى الله عز وجل. (116)

❖ سؤال النبي عليه السلام عن عبادة عبد الله بن عمرو بن العاص:

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت إني أفعل ذلك قال: فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك ونفخت نفسك وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فصم وأفطر وقم ونم). (117)

فريق التواصي بالحق:

اتفق مع مجموعة من أصدقائك على أن تكونوا فريقاً للتواصي بالحق والتواصي بالصبر ومحاسبة النفس. واتفقوا على أن يكون أكثركم التزاماً بعمل الخير هو المسؤول عنكم. ثم أطلقوا على هذه المجموعة اسماً مثل: مجموعة الصديق، أو مجموعة الفاروق. ثم وضعوا برنامجاً للأعمال اليومية لمدة أسبوع. بحيث يشتمل على العبادات وأعمال الخير والدراسة وإتقان بعض المهارات.. ثم عودوا أنفُسكم على أن يكون السؤال دائماً عندما يلتقي أحدكم بالآخر أن يبدأه بالسلام ثم يسأله عن بعض مفردات هذا البرنامج.

آثار المحاسبة على الفرد والجماعة:

وللمحاسبة آثار طيبة على الفرد والجماعة. أهمها ما يلي:

- ضمان التزام الأفراد والجماعة القيام بالتكاليف والواجبات وعدم الخروج عن الخط العام المقرر. والوقاية من الأضرار والآثار السلبية الناجمة عن المخالفات والتكاسل في تنفيذ المطلوب.
- معالجة الأخطاء الداخلية، ووأدها قبل ظهورها وانتشارها. واحتواء أي مشكلات يمكن أن تطرأ بسبب ترك المحاسبة، أو تأخيرها.
- رفع همة الأفراد وتقوية عزائمهم وإمدادهم بشحنة من الطاقة للقيام بأعباء الدعوة والتزاماتها.

دورها في الدعوة:

للمحاسبة دور كبير في الدعوة، حيث ترفع مستوى قدرة الأفراد على الاهتمام بها وتجديد نيتهم لنشرها ونصرتها، وتذكيرهم المستمر بأنها الهدف الكبير في حياتهم الذي يحيون له ويموتون من أجله، ومتى صار الداعية أمام هدف واضح يسعى إلى تحقيقه، ويبدل جهده ووقته وماله وروحه من أجله، أمكننا أن نرى نماذج من جيل الصحابة والتابعين الذين كانت هممتهم وغايتهم تتصدر قائمة الأولويات في حياتهم، وتم عنها كلماتهم المختصرة وأعمالهم الكبيرة، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في موقف من المواقف:

(أينقص الدين وأنا حي؟) وهذا المقداد بن عمرو رضي الله عنه يقول عند سماعه لخبر سره: (لأموتن والإسلام عزيز)، وهذا صلاح الدين يُسأل عن سبب حزنه، وعدم ضحكك، حيث كان يبدو دائماً مهموماً، فيجيب: إنني أستحيي من الله أن أضحك والأقصى أسير في أيدي أعداء الله.

(116) رواه أبو داود برقم 554 وصححه ابن حبان برقم 120.

(117) - رواه البخاري برقم 1975.

إن المحاسبة لينة أساسية في بناء الدعوة ورفع الهمة وشحذ العزيمة, وإن واجب الدعاة أن يأخذوا بها دائماً,
ليتواصوا فيما بينهم بالحق وبالصبر.

برنامج المحاسبة اليومي للفرد

السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	صلاة الفجر	قراءة جزء	صلاة الضحى	بر الوالدين	الصلاة جماعة	النوافل	تعلم مهارة	قراءة في كتاب	مساعدة محتاج	تقديم صدقة	تسبيح وذكر

مننا فحرمنا
الأبواب في الآيات



المبحث الثاني عشر: التوبة

التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريرين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين.

والتوبة أمر يشتمل على ثلاثة أمور مرتبة هي: العلم والحال والفعل، فالعلم بأن يعلم الإنسان ضرر الذنوب وأنها تحجبه عن محبوبه، فإذا عرف ذلك تألم قلبه وندم على فوات ما يحبه، ثم انتقل هذا الندم لينبعث منه إرادة وقصد إلى ترك الذنب الذي سبب له الحرمان، وعزم على مفارقة هذا الذنب أبداً، فالعلم بضرر الذنوب والندم على فعلها، والعزم على مفارقتها وعدم العودة إليها هي الأمور الثلاثة التي تشتمل عليها التوبة، وقد يطلق على الندم وحده توبة باعتبار أن العلم مقدمة لها والعزم على الترك ثمرة، وبهذا الاعتبار يفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الندم توبة" (118)

أهمية التوبة

الإنسان بطبعه كثير الخطأ، ومهما اجتهد في الطاعة والعبادة والبعد عن المعاصي فلا بد أن يقع بشيء منها، والمعاصي قسمان: كبائر وصغائر، والتوبة منها مطلوبة من المسلم، لأن التوبة تجديد للعهد مع الله سبحانه، على ترك الذنوب والندم عليها، وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تدعو المسلمين إلى التوبة، وهذه طائفة منها:

قال تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) سورة النور/31 وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً...) سورة التحريم/8 وقال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) سورة البقرة/222 وقال صلى الله عليه وسلم: "توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة" (119)

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها" (120)

الله سبحانه يحب التوبة ويفرح بها

من رحمة الله سبحانه أنه فتح للناس باب التوبة، ليتوبوا إليه، وهذا الباب واسع، عرضه مسيرة أربعين عاماً أو سبعين عاماً كما جاء في الحديث، وهو لا يغلق في ليل أو نهار، فمن تاب تاب الله عليه وقبل توبته، وبدل سيئاته حسنات. وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن التوبة من العبد مقبولة إذا حصلت قبل أحد أمرين هما:

- أن يكون العبد في سكرات الموت وتبلغ روحه الحلقوم، ففي هذه الحالة لا تقبل توبته لو تاب.
- أن تطلع الشمس من مغربها، وذلك في آخر الزمان، فإذا طلعت الشمس من مغربها أُغلق باب التوبة، ولم تعد مقبولة.

(118) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(119) رواه البخاري برقم: 43/2

(120) رواه مسلم برقم 2759.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر". رواه الترمذي وقال حديث حسن.
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه." (121).

الغرغرة: أن تبلغ الروح الحلقوم، استعداداً للخروج من الجسم. والسبب في عدم قبول التوبة عند الغرغرة أن هذا الإنسان ينكشف عنه الحجاب فيرى ملائكة العذاب. ولذلك لا تعد توبته صادرة عن إيمان بالغيب، بل بسبب رؤيته العذاب.

قال تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً) سورة النساء/18.

أما من تاب قبل ذلك فإن الله سبحانه يقبل توبته ويفرح بها، ويتلقاه بالمغفرة والرضوان.

قال صلى الله عليه وسلم: "الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح." (122).

ولكن، لماذا يفرح الله بتوبة عبده؟

إنه سبحانه تواب رحيم، يحب عباده ويريد لهم الخير، ويريد بهم اليسر، ويحب أن تصلح أحوالهم وأن يكونوا على خير. والإنسان المذنب حين يُحرم من التوبة ويُمْنَع منها، فإنه يتمادى في الذنوب والمعاصي، ويستمر في ارتكابها، مما يؤدي إلى تدمير حياته، وإلحاق الأذى بنفسه وبغيره من الناس. فكان لا بد من فتح باب التوبة أمام العباد ليتوبوا ويندموا على الذنوب التي عملوها، ويعزموا على تركها والبعد عنها، فتصلح أحوالهم، ويتخلص المجتمع من شرهم وأذاهم.

كثير من السجناء أدخلوا السجن بسبب جرائم ارتكبوها فمنهم القاتل ومنهم السارق والمحتال.. وهؤلاء أحوج الناس إلى مرشد يرشدهم إلى التوبة، ويرغبهم فيها ويحثهم عليها، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن كثيراً من السجناء الذين تتوفر لهم فرصة اللقاء بالمرشدين والوعاظ يتوبون وتصلح أحوالهم، فإذا خرجوا من السجن كانوا من أكثر الناس التزاماً، واستراح المجتمع من شرورهم. أما الذين لم تتح لهم تلك الفرصة، فإنهم إذا خرجوا من السجن عادوا إلى الجرائم بإصرار، وعادوا إلى السجن مرة أخرى.

الذنوب وأقسامها

الذنوب قسمان؛ قسم لا يغفره الله تعالى أبداً، وهو الشرك بالله والكفر به، فهذا أعظم الذنوب، ومن وقع فيه فلا يقبل الله منه شيئاً إلا إذا أسلم ودخل في دين الإسلام. قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) سورة النساء/48.

وقسم يغفره الله تعالى، وهو بقية الذنوب مهما عظمت، ولكن بشرط أن يتوب العبد منها، ويندم عليها، وهذه الذنوب قسمان: كبائر وصغائر، فالكبائر جمع كبيرة، وهي: كل ذنب يترتب عليه حد من الحدود، أو توعد الله عليه بالعذاب في جهنم، أو باللعنة أو الغضب. فكل ذنب من هذا القبيل هو كبيرة من الكبائر. أما الصغائر فهي الذنوب التي ورد التحذير من فعلها، ولكنها أقل من الكبائر، كأنظر إلى ما حرم الله، والكلمة السيئة يقولها الإنسان، وما أشبه ذلك. والمسلم مطلوب منه أن يتوب من الصغائر والكبائر، وأن لا يتهاون بالصغائر، ولا يتعمد فعلها، ولا يصبر عليها، وإن وقع في شيء منها فعليه أن يتوب ويستغفر.

قال الشاعر:	لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى	
وقال آخر:	كل الحوادث مبداها من النظر
ومعظم النار من مستصغر الشرر	والمرء ما دام ذا عين يقلبها
في أوجه الغيد موقوف على الخطر	قال العلماء: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

شروط التوبة

للتوبة شروط لا بد من توفرها حتى تكون التوبة صحيحة ومقبولة عند الله سبحانه، وهذه الشروط هي:

- أن يندم العبد على الذنب الذي فعله، ويكون ذلك باستشعار الخطأ، وحزن القلب.
- أن يترك الذنب ويعرض عنه، ولا يبقى مصراً عليه.
- أن يعزم على ترك الذنب وعدم تكراره في المستقبل.
- وإذا كان الذنب من الذنوب التي تتعلق بحقوق الناس، فلا بد من شرط رابع وهو أن يعيد الحقوق إلى أصحابها، فمن اختلس مالا ثم أراد أن يتوب فعليه أن يعيد هذا المال إلى أصحابه.

السبب الباعث على التوبة

حين يفكر المسلم بحقيقة الذنب يجد أن هذا الذنب يبعده عن الله سبحانه، ويشعره بأن هناك حاجزاً بينه وبين ربه سبحانه، وبأن الشيطان يسيطر عليه ويوجهه إلى اقتراح مزيد من الذنوب والمعاصي، ولكن المسلم لا ييأس من رحمة الله، فهو يعلم أن الله غفور رحيم تواب حكيم، يقبل توبة التائب، ويفرح بها. والذنب يؤدي بصاحبه إلى الوهن والضعف في بدنه، والسواد في وجهه، ويشعره بالذل والهوان، ولذلك كان حقاً على المسلم أن يكثر من التوبة ليتخلص من ذنوبه، ويتخفف منها، فالذنوب أثقال وأحمال، وسبيل التخلص منها هو التوبة والاستغفار، من أجل هذا كله يتحرك قلب المسلم ليتوجه إلى ربه سبحانه بالتوبة.

قال الله تعالى: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) سورة الشورى/25.

وقال تعالى: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) سورة آل عمران/135- 136.

الإصرار على الذنب وعلاجه

الإصرار على الذنب خطأ جسيم، يترتب عليه ضرر كبير. لذا كان على المسلم أن يترك الذنب ويترك الإصرار على فعله، وقد وصف الله سبحانه المحسنين بقوله: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) سورة آل عمران / . وعلاج الإصرار على الذنب إنما يكون بما يلي:

- الإكثار من تلاوة القرآن الكريم وتدبره، فإن ذلك يورث المسلم رقة قلب وزيادة إيمان، ويوقفه على أهمية التوبة ومراقبة الله تعالى، والخوف من عذابه.
- ذكر الموت وسكراته وأهواله، وأن الإنسان حين يموت سيفقد كل شيء، ولن يرافقه إلا عمله، وأنه سيفارق هذا الذنب الذي كان يعمله، وسيحاسب عليه.
- ذكر الجنة وما أعد الله فيها للطائعين والصابرين، الذين يحرمون أنفسهم من المتع المحرمة خوفاً من الله تعالى، فالله تكفل بأن يعوضهم خيراً، فإن "من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه".
- ذكر النار وما أعد الله فيها من العذاب للعصاة والمذنبين، فإن ذلك سيدفع المسلم إلى الخوف من اقتراف المعاصي.

- الإكثار من ذكر الله تعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم، فالمسلم حين يشغل وقته بذكر الله تعالى، سيكون بعيداً عن وسوسة الشيطان وإغوائه، وسيبتعد عن الذنوب ويتركها.
- الإكثار من الدعاء، لعل الله سبحانه يستجيب للعبد فيصرف عنه الذنوب والمعاصي، ويوقفه للطاعة.

من الدعاء المأثور أن يقول الداعي:
اللهم أكرمنا بطاعتك، ولا تهنا بمعصيتك.
وهذا الدعاء يؤكد أن المعصية إهانة وذل، وأن الطاعة إكرام وعز، فإذا أراد المسلم العزة فعليه بتقوى الله وطاعته.



المبحث الثالث عشر: الأخذ بالعزائم والرخص

المسلم قوي بإسلامه، عزيز بإيمانه، لا يضعف عند الشدائد، ولا تلين قناته في مواجهة الخطوب والمصائب، شعاره دائماً: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين" ليوسف:108] فهو دائماً ذو عزيمة صادقة، وهمة عالية، يعيش حياته ابتغاء رضوان الله، ويقدم روحه في سبيل الله، ويلتزم منهج الإيمان والقرآن في حياته، ويعلم أن كل ما يواجهه من مشكلات أو مصائب، فهو من قدر الله تعالى، يصبر عليه فينال أجر الصابرين، ويرقى في درجات أولياء الله المتقين.

متى يؤخذ بالعزيمة ومتى يؤخذ بالرخصة؟

بين القرآن الكريم أن هناك أموراً من التزامها فقد أخذ بالعزائم، وأتى أمراً عظيماً يستحق به الثواب العظيم، فقال تعالى: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور" [الشورى:43]. وقال: "لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور" [آل عمران:186].

وجاء في وصية لقمان لابنه قوله: "يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور" [لقمان:17].

وإذا نظرنا في هذه الأمور المذكورة وجدنا أن الصبر أمر مشترك فيها جميعاً، ففي الآية الأولى: الصبر على أذى الآخرين ومسامحتهم، وفي الثانية الصبر على البلاء في الأموال والأنفس، والصبر على الأذى الذي يصيب المسلمين بسبب الدعوة إلى الله، وفي الآية الثالثة: الصبر على ما يلحق المسلم من الأذى بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وحين ننظر في تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أن المسلمين في وقت الشدائد والمحن كانوا مطالبين بالصبر والتحمل، والأخذ بالعزائم، لا أن يركنوا إلى الرخص والبحث عن الراحة. ومن الأمثلة على ذلك:

1- حوَصر المسلمون في الشعب ثلاث سنوات، ومُنِعوا من شراء الطعام واللباس والمتاع، واشتد عليهم الأمر حتى أكلوا ورق الشجر، وتقرحت أفواههم، وأصابتهم المصائب بسبب ذلك الحصار الظالم، ولم يرخص الرسول لأحد منهم أن يلين للمشركين أو يهادنهم، كما أن المسلمين لم يطلبوا ذلك من الرسول ولا تدمروا من الحال التي كانوا فيها، بل صبروا حتى فرج الله عنهم.

2- جاء بعض الصحابة يشكون إلى الرسول ما يلقونه من أذى المشركين، ويقولون له: يا رسول الله، ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟ فغضب الرسول وقال لهم: "كان فيمن قبلكم يؤتى بالرجل فيحفز له في الأرض حفرة، فيوضع فيها، ويوضع المنشار على مفرق رأسه حتى يشقه نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصد ذلك عن دينه .."

وبهذا يتبين أن الرسول حث أصحابه على الصبر والأخذ بالعزيمة، حتى يظهر الله هذا الدين وينصره، وكان الرسول قادراً على أن يدعو على المشركين، فيهلكهم الله تعالى.

3- وكان كثير من الصحابة يحرصون على تلاوة القرآن على مسامع المشركين، رغبة في دعوتهم إلى الإسلام، على الرغم من معرفتهم بما سيلحق بهم من تعذيب وإيذاء من جراء ذلك. فهذا ابن مسعود يريد أن يقرأ القرآن أمام المشركين فيقول له أصحابه: يا ابن مسعود نخشى أن يؤذوك، لكنه لا يبالي، ويذهب فيقرأ سورة الرحمن عند الكعبة، وكان ندي الصوت حسن القراءة، فلما سمعه المشركون أخذوا يضربونه حتى أغمي عليه فلما أفاق قال له بعض أصحابه: هذا الذي كنا نخشاه. فقال لهم: لئن شئتم لأسمعنهم غداً كما أسمعتمهم اليوم.

4- اشتد الأذى على عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حيث أخذه المشركون فعذبوه عذاباً شديداً، وختقوه في حوض من الماء حتى كاد يموت، وقالوا له: لن ندعك حتى تسب محمداً، وتذكر آلهتنا بخير. فلما اشتد عليه العذاب أجابهم إلى ما طلبوا، فأطلقوه، فجاء إلى الرسول وهو يبكي. فقال له الرسول: ما وراءك يا عمار؟ قال: يا رسول الله ما تركوني حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: فإن عادوا فعد. (1 2 3)

وبهذا نلاحظ أن الرسول رخص له في هذه الحالة حفاظاً على حياته، ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان.

5- وكان عبد الله بن حذافة السهمي قد وقع أسيراً في أيدي الروم، ومعه سبعون من المسلمين، فلما علم الروم أنه من أصحاب الرسول أرادوا أن يمتحنوه في دينه، فأرسلوه إلى قائدهم، فأخذ يعرض عليه المال والمتاع والجاه، مقابل أن يرتد عن دينه، ويصبح نصرانياً، لكنه أبى واستمسك بدينه، فعرض عليه قائد الروم العذاب، وأخذ يخوفه، لكنه لم يلبس ولم يتراجع، فأتى قائد الروم بقدر ملئ بالماء الذي يغلي، وأمر بإلقاء أحد الأسرى فيه، أمام عبد الله بن حذافة، وفي الحال ألقى الأسير في القدر ومات، لكن عبد الله لم يجزع ولم يلبس، فأمر قائد الروم بإلقائه في القدر، فلما أرادوا إلقاءه في القدر دمت عيناه، فقال له القائد: مالك بكيت؟ هل خفت من الموت؟ قال: إنما بكيت لأنه ليس لي إلا نفس واحدة تموت في سبيل الله هذه الميتة، تمنيت لو أن لي مئة نفس تموت هذه الميتة لأنال الكرامة العظيمة عند الله تعالى. فعجب قائد الروم، وقال له: أتقبل رأسي وأطلق سراحك؟ قال: وتطلق سراح أسرى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، وعاد بأسرى المسلمين، فلما دخلوا المدينة وعلم عمر بن الخطاب بالأمر، قال: حق عليكم يا معشر المسلمين أن تقبلوا رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدوكم، فأخذوا يقبلون رأسه، لأنه أنقذ أسرى المسلمين.

الرخص في العبادات

أما الرخص في العبادات فقد أذن بها الشرع الحنيف، وحثت عليها سنة رسول الله ، بل كان رسول الله حريصاً على الأخذ بالرخص، كي لا يشق على المسلمين، ولا يجرهم، ومن هذه الرخص:

الإفطار في رمضان للمسافر والمريض، وقصر الصلاة للمسافر، والجمع بين الصلاتين في السفر أو المطر الشديد، والمسح على الخفين، والمسح على الجبيرة لمن أصيب بكسر أو جرح.. ومن الأدلة على ذلك أن الرسول أفطر في رمضان حين كان متوجهاً لفتح مكة، حيث توضعاً لصلاة العصر، ثم رفع الإناء، فشرب منه والناس

ينظرون، وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من البر الصيام في السفر " . متفق عليه.

وجاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ومنا المفطر، فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم. وكانوا يرون أن مَنْ به قوة فصام فإن ذلك حسن، ومن كان به ضعف فأفطر فإن ذلك حسن. رواه مسلم.

عن حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصيام والإفطار في رمضان في السفر أيهما أعظم أجراً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن شئت فصم وإن شئت فأفطر " . متفق عليه .
وأرسل الرسول سرية من الصحابة، فساروا، وأصيب أحدهم بجرح في رأسه، ثم أصبح جنباً في ليلة شديدة البرد، فقال لأصحابه: إني أصبحت جنباً، فهل تجدون لي رخصة أن لا أغتسل؟ قالوا: لا نجد لك رخصة، فاغتسل، فمات، فأخبر الرسول بذلك، فقال: قتلوه، قتلهم الله. هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال".
وبهذا يتبين أن الرخص في العبادات، إنما شرعت للتيسير على المسلمين، ورفع الحرج عنهم، وأن الأخذ بها سنة عن رسول الله ، كما أن الأخذ بالعزائم لا مانع منه لمن كان قادراً، ولم تلحقه مشقة، مع مراعاة أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه".

تتبع الرخص

لكل مذهب تسهيل في مسائل، فمثلاً تجد في مذهب هذا حلال وهذا حرام، إذا الحلال يعتبرونه رخصة، لكن في المذهب نفسه ممكن أن يحرم مسألة أخرى يبيحها المذهب الأول، وهكذا تجد بعض الناس يأتي إلى المذهب يأخذ ما فيه من الرخص، فكل ما فيه من تحليل في هذا المذهب يأخذه، وكل ما فيه من تحريم يتركه، ثم يأتي إلى المذهب الآخر فيأخذ كل ما فيه من تحليل، ويترك ما فيه من تحريم، وهذه أيضاً مسألة خطيرة، فهي عبارة عن تلفيق مجموعة من الآراء بغير ضابط، إلا بمجرد أنها رخص، ليس فيها مشقة على النفس، ولا تكليف لكنها تناسب المزاج.

وقد كثر تحذير أهل العلم من تتبع الرخص. وفي هذا يقول سليمان التيمي: لو أخذت برخصة كل عالم، اجتمع فيك الشر كله، ويقول ابن عبد البر في تحريم تتبع رخص العلماء: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل العلم، وكذلك قال الإمام ابن حزم والباجي وابن الصلاح وغيرهم من العلماء، ونقلوا إجماع العلماء على أنه لا يحل لمسلم أن يكون شأنه تتبع الرخص.

قال الإمام ابن حزم رحمه الله: وهناك قوم بلغت بهم رقة الدين وقلة التقوى إلى طلب ما وافق أهواءهم في قول كل قائل، فهم يأخذون ما كان رخصة في قول كل عالم، غير طالبين ما أوجبه النص عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال إسماعيل القاضي : دخلت على المعتضد -وهو من أمراء بني العباس-، فرفع إلي كتاباً لأنظر فيه وقد جمع فيه رخص بعض العلماء من غير تثبت ولا نظر ولا مقارنة ولا ترجيح، قال: فنظرت في هذا الكتاب ثم قلت: مصنف هذا الكتاب زنديق -هكذا يقول للخليفة- فسأله الخليفة لماذا؟ قال له: هذه الأحاديث التي ذكر لم تصح على ما رويت، فمن أفتى مثلاً بالمتعة لم يفت بإباحة الغناء والمسكر، وصاحب الكتاب قال لك: الغناء حلال، وأهل المدينة أباحوه، والمسكر حلال لأن أهل العراق أباحوه، والمتعة حلال لأن أهل مكة أباحوه، المتعة بالنساء وهي معروفة.

وقال له: الذي أباح مثلاً النبيذ ما أباح الغناء، والذي أباح الغناء ما أباح النبيذ، والذي أباح المتعة ما أباح هذين، فكيف يأتي بترخيصات لهؤلاء جميعاً ويجمعها، وبالمناسبة المعتضد أمر بإحراق الكتاب هذا، ما دام أن مؤلفه زنديق، وهذا شأنه يحرق.

المبحث الرابع عشر: تجنب الحقد والحسد

الحقد ثمرة من ثمرات الغضب، فإن الإنسان إذا غضب من آخر، ولم يستطع أن يشفي غيظه منه، رجع هذا الغيظ فثبت في القلب، فصار حقداً، ومعنى الحقد أن يستشعر الإنسان بغض ذلك الشخص وكرهته والنفور منه، والرغبة فيما يؤذيه، وبحيث يدوم هذا الشعور ويلزم القلب. هذا الخلق من الأخلاق الذميمة التي نهى الإسلام عنها وحذر منها، ودعا المسلمين إلى تركها والابتعاد عنها. لأن الحقد يؤدي إلى ثمرات سيئة ونتائج خطيرة، ويضر بنفس من يتصف به. والحقد خلق يتصف به ضعفاء النفوس، المتصفون بالعجز والكسل وضعف الهمة وقلة الإرادة. أما أصحاب العزائم والهمم فإنهم يترفعون عن الحقد، ويتجاوزونه إلى الصفح والعفو ونسيان خطأ من أخطأ بحقهم. وفي هذا يقول الشاعر:

وان الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ثمرات الحقد

تثمر شجرة الحقد أشواكاً بغيضة سيئة أبرزها:

- الحسد للشخص الذي تحقد عليه.
- الشماتة به.
- هجره ومقاطعته.
- الإعراض عنه استصغاراً له.
- الوقوع في عرضه، بالكذب والغيبة والسباب..
- إيذاؤه والاستهزاء به والسخرية منه.

(1 2 4)

- منعه حقه من قضاء الدين أو صلة الرحم..

إن المسلم لا يقبل لنفسه أن ينزل إلى هذه المرتبة من الحقد على الناس، ولو آذوه وألحقوا به الضرر والمكروه، لأن المسلم إنسان رباني يغضب لله ويرضى لله ويعطي لله ويمنع لله، ولا ينتصر لنفسه، ولأن المسلم يحب الخير للناس ويحرص على إصلاحهم وهدايتهم، لذا فهو يمنع شجرة الحقد أن تثبت في قلبه، أو أن تثمر ثمارها السيئة الكريهة.

كيف نتجنب الحقد؟

يمكن للإنسان أن يدفع عن نفسه الحقد من خلال ما يلي:

- النظر في نفس الحقد وما يمكن أن يثمره من ثمرات، فإن ذلك يؤدي به إلى ترك الحقد والبعد عنه.
- التفكير في الحقد، وهل له من نفع يأتي به؟ وسيجد المرء أن الحقد لا يأتي بنفع أبداً، لكنه يمكن أن يرضي نفس الحاقد عند إنفاذ غيظه، لكنه بعد ذلك سيرجع إلى الندم. والمسلم لا يسعى لإرضاء نفسه، بل يسعى إلى إرضاء الله سبحانه، ولو أدى ذلك إلى إذلال نفسه وحرمانها ومخالفة هواها.
- العلم بأن الحقد من صفات العجزة والضعفاء، وهذا سيجعله ينفر من الحقد ويبتعد عنه.
- العلم بفضيلة العفو والصفح. وما لذلك من أجر عظيم عند الله سبحانه.

القدوة الصالحة في تجنب الحقد

في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منهج واضح في تجنب الحقد وتربية النفس على تركه، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم يُنتهك من محارم الله، فإذا أنتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك غضباً...". (125)

وقد سبق أن أصحاب الهمم والعزائم يرفضون أن يتصفوا بالحقد، لأن الحقد من شيم الضعفاء. وكلما علت همة المرء، وسمت نفسه صار أقرب إلى الصفح والعفو والمسامحة. فلا عجب أن نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبعد الناس عن الحقد، فقد أودى أشد الإيذاء، ولقي من قومه من العنت والمشقة ما لا يطاق. وحين عرض عليه أن ينزل بهم العذاب جزاء ظلمهم وإيذائهم له، رد بقوله: لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله. (126)

وفي موضع آخر قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. (127)

وحين دخل مكة فاتحاً، وقد أيدته الله بالنصر وبجيش عظيم من الصحابة الكرام، وقف أمامه المشركون في ذلة وصغار، ينتظرون ماذا يصنع بهم جزاء ما صنعوا به في سالف الأيام، فقال لهم: يا معشر قريش، ما ترون أنني فاعل بكم؟ قالوا- وقد أخذهم الخوف- : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. (128)

ومن قبل ذلك أخبر القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وموقفه من إخوته الذين كادوا له فأبعدوه عن أبيه وأهله، وألقوه في غيابة الجب، وصار بسبب كيدهم عبداً مملوكاً ثم سجيناً.. فلما أتم الله له الأمر، وجعله في المقام الرفيع، جاء إخوته بحال من الذل والصغار والضر، فعرفهم ولم يعرفوه، وفي نهاية الأمر ذكرهم بما فعلوا به، ثم عفا عنهم وسامحهم قائلاً لهم: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) ليوسف:أ.

(125) صححه الألباني برقم 300 في مختصر الشمائل

(126) رواه البخاري برقم 3231 ومسلم برقم 1795

(127) رواه البيهقي في شعب الإيمان - برقم: 622/2 وقال حديث مرسل

(128) قال الألباني: لم أفد له على إسناد صحيح وروي بسند معضل

وقصة مؤمن آل ياسين، ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليؤيد الرسل وينصرهم، فقتله قومه، فأكرمهم الله بالشهادة ودخول الله، فلما أدخل الجنة كان أول شيء قاله: (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) ليس: [1]. فهو لم يحقد على قومه، مع أنهم قتلوه، بل تمنى لو كانوا يعلمون بما نال من الخير، ليؤمنوا فينالوا ما نال من الأجر العظيم.

نشاط

اذكر قصة تعرفها عن شخص أؤذي في الله فصبر حتى نصره الله ومكنه من أعدائه فلما ظفر بهم سامحهم وعفا عنهم.

الحسد

الحسد ثمرة من ثمرات الحقد ونتيجة من نتائجه، ومعناه أن يرى الإنسان نعمة عند آخر، فيكره أن يكون ذلك الشخص في تلك النعمة، ويتمنى زوالها عنه.

والحسد من الأخلاق الذميمة والشيم الرديئة التي يتصف بها أناس لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يذوقوا حلاوة الإيمان، فالحاسد إنسان يكره الناس ويحقد عليهم، ويترصب بهم الشر، ويريد لهم المكروه والضرر، وهذا كله يتنافى مع ما أمر به الإسلام من المحبة والأخوة بين المؤمنين، وأن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه.

والحاسد كأنما يعترض على قضاء الله تعالى، فالله سبحانه هو الذي أعطى وأنعم بالنعم، وكأن الحاسد يقول في نفسه: لماذا أعطى الله فلاناً هذه النعمة؟ ألسنتُ أحق بأن أعطاها؟ أليس الأولى أن تكون هذه النعمة عندي؟ وهل يستحق فلان هذه النعمة؟ وكل هذا اعتراض على قضاء الله ورفض لأمره، ولا شك أن هذا من كبائر الذنوب والمعاصي.

قال الشاعر:

ألا قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب؟
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب
فردك ربي بأن زادني وسدّ عليك وجوه الطلب

ذم الحسد

بينت الآيات والأحاديث أن الحسد من الذنوب العظيمة، والصفات الذميمة التي لا ينبغي للمسلم أن يتصف بها، كما بينت أن كثيراً من أهل الكتاب، لا سيما اليهود يحسدون الناس، قال تعالى:

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) [البقرة: 109]. وقال تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله..) [النساء: 54]. بل أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نستعيذ به من شر الحاسد حين قيامه بعملية الحسد فقال تعالى: (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد) [سورة الفلق: 1-6].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث". (129) وقال أيضاً: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب". (130)

أسباب الحسد

للحسد أسباب ترجع في جملتها إلى ضعف الإيمان بالله تعالى، وخبث نفس الحاسد، ويمكن القول إن أبرز هذه الأسباب هي:

- العداوة والبغضاء، فالذي يبغض إنساناً ويعاديه إن لم يستطع إيذائه والنيل منه حسده وتمنى زوال النعمة عنه.
- الكبر، فالمتكبر لا يحب أن تصيب الآخرين نعمة من مال أو جاه، لأنه عندئذ لا يستطيع أن يتكبر عليهم، ويخشى أن يصبحوا أحسن حالاً منه، ولذلك يحسدهم ويتمنى زوال النعم عنهم.
- الخوف من فوات المقاصد، وذلك عندما يتنافس اثنان أو أكثر على شيء واحد، مثل أن تتحاسد الضرائر، بحيث تحرص كل منهن على نيل محبة زوجها، فإذا تقدمت عليها ضررتها في ذلك حسدتها، ومثل أن يتنافس المقربون من السلطان على كسب مودته واستمالة قلبه، فإذا تقدم أحدهم بصفة حسده الآخرون..
- حب الرياسة والجاه، وذلك كمثّل الرجل الذي يريد أن يكون متميزاً عن غيره في علم من العلوم، فإنه إذا سمع بآخر قد برع في هذا العلم، ووصل فيه إلى آفاق أوسع، كره ذلك وأبغضه، وتمنى لذلك المنافس الموت أو الفشل.

الفرق بين الحسد والغبطة

الحسد يكون يتمنى زوال النعمة عن الغير، أما الغبطة فهي أن يرى المرء نعمة عند آخر فيتمنى أن يكون له مثلها، دون أن تزول عنه، وفي هذا جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله المال فهو ينفقه في سبيل الله آناء الليل وآناء النهار".

علاج الحسد

إن علاج الحسد يكون بالعلم والعمل، فأما العلم فهو بأن يعلم الإنسان أن الحسد ضرر على الحاسد في دنياه ودينه، فضرره في الدنيا أنه إذا زالت النعمة عن غيره بحسده لم تتصرف إلى هذا الحاسد، وضرره في الدين أن الحسد اعتراض على قضاء الله، وإساءة للمحسود وظلم له وغش له، كما أنه اتصاف بصفات اليهود والمنافقين، ومخالفة لأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وأما العمل فيكون بأن يربي المسلم نفسه على غير ما تهواه من الحسد، ويكلف نفسه ترك الحسد والبعد عن الحقد، والمصارعة إلى الإحسان لهذا المحسود والتودد إليه، ويحتاج هذا الأمر إلى مجاهدة النفس لتقبل ذلك وتعوده.

يقول المثل: الحسود لا يسود.

(129) رواه البخاري برقم 6065 ومسلم برقم 2558،

(130) رواه أبو داود برقم 4903

اذكر حديثاً شريفاً أو حكمة أو بيتاً من الشعر يدل على هذا المعنى.

المبحث الخامس عشر: تجنب الكبر واتباع الهوى

الكبر خلق من الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الإسلام وحذر من الاتصاف بها، وهو خلق يدل على نفس مريضة، تتعالى على الآخرين وتحتقرهم، وتتنظر إليهم نظرة فوقية.

والكبر أول ذنب صدر من مخلوق، فقد تكبر إبليس على آدم عليه الصلاة والسلام، إذ أمره الله سبحانه أن يسجد لآدم، فأبى واستكبر، ورد بقوله: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) [الأعراف: 12]. فإبليس قد تكبر على آدم حين رأى نفسه خيراً من آدم، وتكبر على أمر الله تعالى حين رفض الامتثال، وامتنع من الطاعة.

معنى الكبر

الكبر أن يرى المتكبر لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبته فوق مرتبة غيره، فيحصل له في نفسه اعتداد واعتقاد أنه أفضل من غيره، واعتزاز بنفسه يؤدي به أن يفضلها على غيره، ويحتقر ذلك الغير. فالكبر عبارة عن هذه الحالة الحاصلة في النفس من عزة وتعاضم، وهي حالة تقتضي أعمالاً ظاهرة وباطنة، وهي الثمرات التي تسمى تكبراً.

والأعمال التي تصدر عن الكبر كثيرة جداً منها أن يحتقر المتكبر الآخرين ويزدريهم، ويرفع عن مجالستهم ويرى أن واجبهم نحوه أن يقوموا بين يديه، وأن يبدأوه بالسلام، وأن يقوموا بخدمته، ويقضوا حوائجهم.. والمتكبر إذا وُعط استتكف عن قبول الوعظ، وإذا وعظ الآخرين عنفهم وهزئ بهم، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين وانتهرهم واحتقرهم.. (131)

التحذير من الكبر

جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة كثير من الآيات والأحاديث التي تذم الكبر وتحذر منه، وتصف المتكبرين بأوصاف يبغضها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، مبينة أن الكبر من أسوأ الأخلاق التي يتصف بها الإنسان، وفي المقابل نجد الآيات والأحاديث التي تدعو إلى التواضع والتذلل للمسلمين وخفض الجناح لهم، ومن ذلك:

قال تعالى: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) [النحل: 22]. وقال تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر: 60]. وقال تعالى: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) [الأعراف: 146].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ قال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس" (132)

وقال: "ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جوّاط مستكبر". (133)

وقال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر". (134)

معاني الكلمات
داخرين: صاغرين أذلاء.
بطر الحق: رفضه ورده على قائله.
غمط الناس: احتقارهم.
العتل: الغليظ الجافي
الجوّاط: الجموع المنوع. أي الذي يجمع المال ولا يعطي المستحقين. وقيل: هو الضخم المختال في مشيئته.
عائل: فقير.

استخرج ثلاثاً

ارجع إلى القرآن الكريم و إلى احد صحيحين واستخرج منه ثلاث آيات وثلاث أحاديث. تحذر من الكبر يمكن الاستعانة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

أقسام الكبر

المتكبر إما أن يتكبر على الله سبحانه، وإما أن يتكبر على الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتكبر على الناس. وبناء على ذلك يكون الكبر ثلاثة أقسام:

1- التكبر على الله وهو أشد أنواع الكبر، وهو كفر عظيم، وممن فعل ذلك فرعون، حيث أخبر الله تعالى عنه بقوله: (فقال أنا ربكم الأعلى) [النازعات:24]، وبقوله: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق..). [القصص:39].

2- التكبر على الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو كفر أيضاً لأنه يؤدي إلى عصيان الرسل، ومعاداتهم، كما فعل كثير من الأمم حيث رفضوا طاعة الرسل والانقياد لهم، متعللين بأنهم بشر مثلهم، فكيف يكونون رسلاً؟ قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: (فاستكبروا وكانوا قوماً عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) [المؤمنون:46-47].

(132) رواه مسلم، برقم 91

(133) رواه البخاري برقم 6071

(134) رواه مسلم برقم 107

3- التكبر على العباد، بأن يترفع المتكبر، ويستعظم نفسه، ويحتقر غيره، وهذا من كبائر الذنوب.

الأسباب الباعثة على الكبر

المتكبر إنسان يعظم نفسه، ويعتقد أن فيها صفة من صفات الكمال، والكمال قسمان: ديني وديوي، فالكمال الديني يكون بأمرين هما: العلم والعمل، والكمال الديوي يكون بأحد الأمور التالية:

(1 3 5) النسب، الجمال، القوة، المال، كثرة الأتباع والأنصار.

علاج الكبر

إن علاج الكبر يمكن أن يتم بأمرين علمي وعملي، فالعلمي أن يعرف الإنسان نفسه، ويعرف ربه تعالى، فمن عرف نفسه حق المعرفة عرف أنه ضعيف ذليل فقير، ولا يليق به إلا التواضع، فهو مخلوق من نطفة، وقبل أن يُخلق لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم إنه سيموت ويصير عدماً ويعود تراباً، وهو بين هذا وذاك لا يملك لنفسه نفعا، ولا يدفع عنها ضرراً. فمن كان كذلك فهو ضعيف وإن قوي، فقير وإن استغنى، ذليل وإن عزَّ. ومن عرف ربه حق المعرفة علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا به سبحانه، فالله سبحانه هو الذي أوجده بعد العدم، وأحياه بعد الموت، ورزقه السمع والبصر والنطق والقدرة على القيام والمشى.. وسائر النعم.

وأما العلاج العملي فيكون بأن يتواضع العبد لربه، ولسائر الخلق، ويقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في تواضعه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو سيد الخلق- يعلف بعيره، ويكنس بيته، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويصلح نعله، ويمشي في السوق لحاجة أهله، ويتعامل مع الناس بتواضع وتودد، ويلبس مثل الناس لا يتميز عنهم بعلامة أو شارة، ويأكل الطعام الذي يقدم له، ويحمد الله على ما أنعم، وربما يبيت ليله يتلوى من الجوع، أو يصيبه المرض، فلا يشكو لأحد.

والمسلم إذا حاول أن يطبق مثل هذه الأمور سيجد في كثير منها صعوبة وشدة بادئ الأمر، لكنه بعد ذلك سيجد لها لذة عظيمة، وسعادة لا حدود لها.

نماذج وقصص من التواضع

قال ثابت بن أبي مالك: "رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب- وهو يومئذ خليفة لمروان-

فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك". (1 3 6)

وقال زيد بن وهب: "رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة، وعليه إزار فيه أربع

عشرة رقعة، بعضها من آدم". (1 3 7)

وقال بعضهم: "رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم، فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير

المؤمنين. فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

للتخلص من الكبر والتحلي بالتواضع قم بما يلي:

(135) انظر: إحياء علوم الدين 496/3.

(136) انظر: إحياء علوم الدين 507/3.

(137) إحياء علوم الدين 507/3.

- ساعد أمك في بعض أعمال البيت من ترتيب..
- تواضع مع الخادم أو السائق وتعامل معه على أنه إنسان مثلك، فلا تسيء معاملته، ولا تر نفسك أفضل منه
- لا تأنف من التحدث مع عمال النظافة، وتقديم بعض المعروف لهم.
- احذر أن يأتي في نفسك الشعور بأنك أفضل من هذا الإنسان أو ذاك، لمجرد أنك غني وهو فقير، أو أنك بين أهلك وعشيرتك وهو غريب.. أو أنك سليم الأعضاء، وهو مريض أو به عاهة. ففي كل ذلك احمد الله الذي أنعم عليك وعافاك وأعطاك، واسأله أن يعينك على شكر نعمه، وقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك
- إذا نصحك من هو أدنى منك منزلة فاقبل نصيحته وخذ بها إن وجدت لها نافعة.

اتباع الهوى

معنى الهوى في اللغة والشرع

الهوى هو ميل النفس إلى الشيء يقال: هذا هوى فلان وفلانة هواه رأى مهويته ومحبوبته وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم كما قال تعالى: { وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى } النزاعات (40- 41) ويقال إنما سمى هوى لأنه يهوى بصاحبه. فالهوى إذاً ميل الطبع إلى ما يلائمه كما قال ابن الجوزي وابن القيم، وهو أيضاً ميل النفس إلى الشهوة.

حكم إتباع الهوى

خلق الميل في الإنسان لضرورة بقائه؛ فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل وما شرب ولا نكح، فالهوى مستحث لها لما يريده كما إن الغضب دافع عنه ما يؤذيه فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ولا مدحه مطلقاً كما إن الغضب لا يذم مطلقاً ولا يمدح مطلقاً وإنما يذم المفطر من النوعين وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار. ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لأنه يندُر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده؛ فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً إلا ما جاء منه مقيداً بما يخرج معناه عن الذم كقولهم: هوى حسن، وهوى موافق للصواب. وقد قيل: الهوى لا يؤمن.

أهل الأهواء والبعد

هم أهل القبلة الذين لا يكون معتقدتهم معتقد أهل السنة والجماعة كالذين يُكفرون بالكبيرة أو يقولون بعصمة الأئمة أو سقوط التكاليف عن الواصل بزعمهم وكالذين يقدمون العقل على النصوص الشرعية، وقد صاروا فرقةً لإتباع أهوائهم، وبمفارقة الدين تشتت أهواؤهم فافترقوا. ولذلك برأ الله نبيه منهم بقوله: { لست منهم في شيء } (الأنعام: 159) ومن علامات أهل الأهواء أنهم يكفرون المخالف لهم ويفسقونه ويبدعون بلا سبب موجب، وعاداتهم التقاطع والتباغض والتناظر، أما أهل السنة فكانوا يتناظرون في المسألة ما يقصدون إلا الخير ولا يتقاطعون ولا يتبارون حذراً من الفرقة التي نبه عليها بقوله تعالى: { إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء } (الأنعام: 159) { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات } (آل عمران: 105).

ولا يسلم العبد من الأهواء والبدع إلا بالرجوع للكتاب والسنة، وأن يكون على مثل ما كان عليه رسول الله
والصحابة الكرام، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

بعض الآيات الواردة في ذم إتباع الهوى

حذرت الآيات من إتباع الهوى ووبخت أهل الأهواء، قال تعالى: { أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم
استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون } . (البقرة: 87)

وقال تعالى: { وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين } (الأنعام: 119) .

وقد حذر سبحانه نبيه وأمته من إتباع أهواء الكفار والمنحرفين في مواضع كثيرة من كتابه كقوله سبحانه:
{ ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك } . (المائدة: 49).

بعض الأحاديث الواردة في ذم إتباع الهوى

لقد كان النبي عليه السلام يتعوذ بالله تعالى من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء وكان مما يخشى على
أمته شهوات الغي في البطون والفروج ومضلات الهوى. وفي الحديث: "وإنه سيخرج من أمي أقوام تتجاري (أي
تتسابق) بهم تلك الأهواء كما يتجاري الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله" (138) . وفي

حديث أنس - رضي الله عنه - "وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه" . (139)

الآثار في ذم إتباع الهوى

لقد كان السلف رضي الله عنهم يحذرون إتباع الهوى كما حذروا الأمة من ذلك ومما أثر عنهم في ذلك قول
علي - رضي الله عنه - : إن أخوف ما أخاف عليكم إتباع الهوى وطول الأمل، أما إتباع الهوى فيصعد عن الحق ،
وأما طول الأمل فينسي الآخرة. وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد أي الجهاد أفضل؟ قال: جهاد هواك . وقال
ابن تيمية: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه
أولاً حتى يخرج إليهم . وقال بشر الحافي: البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه. وقال عطاء: من
غلب هواه عقله وجزعته صبره افتضح. وقال أبو علي الثقفى: من غلبه هواه توارى عنه عقله، وقال ابن المبارك:

أن لا يرى لك عن هواك نزو

ومن البلاء وللبلاء علامة

والحر يشبع تارة ويجوع

العبد عبد النفس في شهواتها

عواقب إتباع الهوى

على العبد أن يتأمل كم أضعفت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلة منعت أكالات،
وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهاً، ونكست رأساً، وقبحت ذكراً وأورثت ذماً، وأعقبت
ذلاً، وألزمت عاراً لا يغسله الماء، غير أن صاحب الهوى عمياء.

كيف يتخلص العبد من إتباع الهوى

(138) - أخرجه الألباني برقم 51 وقال حسن صحيح

(139) حسنه الألباني برقم 3045

بعون الله وتوفيقه يتم التخلص من هذه الآفة بعزيمة حر يغار لنفسه وعليها وجرة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة، وقوة نفس تشجعه، والشجاعة كلها صبر ساعة، وملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه، وإبقائه على منزلته عند الله تعالى وفى قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى، وإيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية، والتفكر في أنه لم يخلق للهوى وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى، وألا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه؛ فالحيوان قد يحسن التمييز بين ما ينفعه وما يضره، وأن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى وأن يكون تحت قهر الشيطان، وأن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة وأن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده حتى وإن كان علماً وزهداً، والشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، وقد شبه سبحانه متبع الهوى بالكلب، ولو تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، لوجدتهم إنما نالوا ذلك كله بمخالفة الهوى، فجاهد نفسك واستعن بالله واستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

المبحث السادس عشر: علو الهمة

الحديث عن علو الهمة يتطلب شباباً من أصحاب الهمم والعزائم. يستمعون إليه ليجعلوا منه برنامج عمل، ويترجموه إلى واقع، وينقلوا به من أبراج التنظير إلى عمل ومنهاج حياة. والإنسان يملك طاقات عظيمة، وإمكانات واسعة مخزونة في نفسه، فمن تنبه لها وعرفها استطاع أن يستخرج من منجمها ما يعينه على أن يصنع العجائب ويقوم بالأعمال التي يعجز عنها كثيرون بسبب ضعفهم وجهلهم. ما الفرق بين المبدعين الكبار والخاملين المغمورين؟ وما الفرق بين الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه بإنجازاتهم وأعمالهم وبين الذين خرجوا من الدنيا كما دخلوها، لم يتركوا أثراً، ولم يُعرف لهم خبر؟ الفرق بسيط جداً، هو أن المبدعين اكتشفوا أنفسهم وما فيها من قدرات، فوجهوا هذه القدرات لخدمة أهدافهم ومقاصدهم التي وضعوها نصب أعينهم، فما مرت الأيام حتى حققوا وأنجزوا. أما الآخرون فأهملوا أنفسهم، واكتفوا بالتسلي والحديث عن إنجازات المبدعين وأعمال الأبطال. فأأي الفريقين خير؟ ومع أيهما تريد أن تكون؟

قال المتنبي:	على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتعظم في عين الصغير صغارها	وتأتي على قدر الكرام المكارمُ وتصغر في عين العظيم العظائمُ
وقال الشاعر:	وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام	

بمن نقندي؟

أعظم الناس وأعلاهم هممة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين جاءه الوحي وعرف ما عليه من واجب نحو هذا الدين وأنه مطالب بتبليغ الناس وإرشادهم، تغيرت أحواله كلها فصار برنامجاً في النهار: (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر...) [المدثر: 1- 3] وبرنامجاً في الليل: (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً...) [المزمل: 1- 2].

وخلال مدة وجيزة من هذا العمل الدائب والنشاط المستمر، لقي فيها من الشدائد والمصاعب ما يفوق الوصف، استطاع أن يوحد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، وأن ينشئ أمة هي خير أمة أخرجت للناس، حملت من بعده رسالته وسارت بها في مشارق الأرض ومغاربها، تنشر العلم والفكر والحضارة، وتحكم الناس بالرحمة والعدل. وكان الصحابة أصحاب همة عالية بذلوا دونها نفوسهم وأموالهم، واستعذبوا في سبيلها المنايا، واستسهلوا الصعاب، واستقبلوا البلاء بنفوس راضية مطمئنة، يحدوهم الشوق إلى تحقيق أهداف عظيمة ومقاصد كريمة. إنهم أرادوا أن تكون كلمة الله هي العليا، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم من أجل تلك الغاية العظيمة. وأرادوا إرشاد الناس إلى الخير والنور الذي عرفوه وعاشوه، فتحملوا الأذى والاستهزاء والتعذيب والتكيل، حتى بلغوا تلك الغاية.

وطلبوا الجنة ونعيمها، فأنسوا بكل ما يقربهم إليها، واستوحشوا من كل ما يبعدهم عنها، حتى كان أحدهم يفر من المعصية كما يفر أحدنا من الهول الشديد، ويتجنب السوء كما يتجنب أحدنا الأقدار والأحوال.

قال الشاعر:	
دببت للمجد والساعون قد بلغوا	جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى ملّ أكثرهم	وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الغاية والهدف

إن علو الهمة يعني أن تكون أيها المسلم صاحب هدف عظيم تعيش له وتسعى لتحقيقه سعياً صادقاً، مع الاستعداد لبذل كل ما تملك من نفس ومال ومتاع، من أجل تحقيق ذلك الهدف. وهذا يتطلب أموراً أهمها:

- **تحديد الهدف:** ما الهدف الذي يستحق أن تعيش له وتسعى إلى تحقيقه؟ ما الهدف الذي يستحق منك التضحية بالوقت والجهد والمال والنفس؟ هل تستحق الدنيا وما فيها كل ذلك؟ سل نفسك وادرس بهدوء وتفكير ثم أعط الجواب لتستقر على أساس، فإن تحديد الهدف هو أهم قضية، إذ لا يستطيع أحد أن يحقق شيئاً إذا كان يمشي إلى غير اتجاه، ويعمل دونما هدف.

- **السعي لتحقيق الهدف:** وهذا يحتاج إلى تفكير وتخطيط ووعي بأحسن الطرق وأفضلها لتحقيق الهدف.

- **معرفة الوقت الذي يستغرقه تحقيق هذا الهدف، فالوقت عامل مهم جداً، ولا بد من الاهتمام به ورعايته بدقة بالغة.**

- **الاستعداد الكافي** بما تملك من مال ومتاع وأدوات وآلات ومصادر تمويل من أجل الوصول إلى الهدف.

- **تقييم المراحل** التي تم قطعها باتجاه الهدف، لمعرفة ما مضى وما بقي، والأخطاء التي حصلت فيما مضى لتجنبها، والأمور الطيبة التي يمكن الاستفادة منها في المراحل اللاحقة.

صاحب الهدف	الهدف	السعي لتحقيق	الوقت	الاستعداد	التقييم والمحاسبة
طالب	النجاح	ترتيب الوقت والمناهج	سنة الثانوية	نفسي وعلمي وفكري	كل شهر
تاجر	ربح مليون درهم	ترتيب الوقت والجهد وطرق التجارة	3 سنوات	رأس مال خبرة ومعرفة رغبة وقدرة	بعد كل صفقة
داعية	دعوة مجموعة من الناس	ترتيب الوقت والجهد والطريقة	5 سنوات	علم وعمل تقوى وصلاح	كل يوم وبعد كل موقف

عابد	الجنة	ترتيب الوقت والجهد والأهم	مدى الحياة	خبرة وقدرة نفسي وعلمي وفكري وروحي	كل يوم وبعد كل عمل
------	-------	---------------------------	------------	-----------------------------------	--------------------

علو الهمة وأثره على الأخلاق

الشخص الذي يتصف بعلو الهمة يتصف بمنظومة من الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة، من أهمها: الكرم والسخاء، الشجاعة والجرأة، التواضع، عزة النفس، الحياء، الوفاء، الصدق، الأمانة، الثقة بالنفس، الأمل والطموح، النشاط والجد، حسن العشرة ولين الجانب، البشاشة والبشر، الصبر والتحمل. وهذه الأخلاق ينميها صاحبها ويدرب نفسه عليها باستمرار، لأن علو همته يدعو إلى ذلك، حيث يجد بالتجربة أن هذه الأخلاق هي التي تجعله قوياً في سيره نحو هدفه، وتُكسبه ثقة الناس به وحبهم له، واقتناعهم بما يدعو إليه ويسعى إلى تحقيقه.

وتتمية هذه الأخلاق وتقويتها في النفس يحتاج إلى مراس وتدريب، فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم والطبع بالتطبع، وكما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً" (140)

وكلما علت همة الإنسان وجد نفسه أكثر احتياجاً إلى التحلي بهذه الأخلاق العالية، وحمل نفسه عليها، وهذا يعني أن علو الهمة له أثر كبير على اكتساب الأخلاق الحميدة والتحلي بها.

نشاط 1: كيف أتعلم خلق التحمل؟

- إذا تعودت أن أنام 6 ساعات يومياً، سأجد أنني أنام ما نسبته 25% من عمري، وهذا كثير، ولأنني عالي الهمة، يجب أن أخفض مدة النوم، بحيث أجعلها 5 ساعات يومياً، وبعد مدة أجعلها 4 ساعات، يساعدني في ذلك قضية ضبط الوقت والمواعيد، وضبط المنبه عند النوم، وسأجد بعد مدة من الزمن أنني تعودت أن أقلل من ساعات النوم وأن أستفيد من الوقت الجديد في إنجاز أعمال إضافية.

- إذا تعودت أن أتناول ثلاث وجبات يومياً، سأجد نفسي دائماً متخماً متثاقلاً ميالاً إلى النوم، عدا عن أن كثرة الأكل تنمي في الإنسان الجشع والأنانية والنهم...، ولأنني عالي الهمة فالمطلوب أن أخفض هذا العدد من الوجبات، بحيث أعود نفسي على وجبتين يومياً، دون أن أزيد كمية الطعام التي كنت أتناولها في الوجبة الواحدة. ثم في المرحلة التالية أعود نفسي على تقليل كمية الطعام في كل وجبة، لكن إذا لجأت إلى صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، سأجد أن كثيراً من التحسن طرأ على صحتي وهمتي وقدرتي، وبدأ يتنامى لدي شعور بالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين، ورغبة في النزود من العمل الصالح وقراءة القرآن، فإذا أضفت إلى ذلك أن أدخر المال الذي كنت أنفقه ثمناً للطعام الزائد، والعلاج من أمراض كثرة الأكل، سيجتمع لدي مبلغ شهري أنفقه في سبيل الله، صدقة في يد محتاج، أو إسهماً في بناء مسجد أو أي عمل بر وخير.

نشاط 2: عود نفسك على هذا النشاط، وعلى نشاطات مماثلة لتكتسب أخلاقاً فاضلة طيبة.

قصص ومواقف

1- جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أجاهد معك. فأوصى به النبي بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي فيها فقسم لأصحابه وقسم لذلك الرجل، فقال الرجل: يا رسول الله ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم هاهنا- وأشار إلى عنقه- فأقتل فأدخل الجنة. فقال له النبي: إن تصدق الله يصدقك. ثم كانت غزوة أخرى فنهضوا في قتال العدو، فجيء بالرجل محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار. فقال النبي: أهو هو؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: صدق الله فصدقته. ثم قدمه فضلى عليه فكان مما ظهر في صلواته أن قال: اللهم هذا عبدك خرج مجاهداً في سبيلك، فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك. (141)

2- قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

"إن لي نفساً تواقفة، كلما نالت شيئاً تاقت إلى ما فوقه، تقنت إلى الإمارة فلما نلتها تقنت إلى الخلافة، فلما نلتها، لم يبق شيء في الدنيا أتوق إليه، فتاقت نفسي إلى الجنة".

3- ورأيت رجلاً من أصحاب الهمم العالية لا يدع سبيلاً من سبل الخير والعمل الصالح إلا سلكه وحرص عليه، وكان نقش خاتمه عبارة: [الفردوس الأعلى] أسأل الله أن يبلغه إياه.

5- كان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رجلاً يحب الجهاد والغزو في سبيل الله، فلما تقدمت به

السن قال له بعض أهله: إن الله قد عذرك، فلا عليك لو قعدت في بيتك. فقال: إني قرأت آية في كتاب الله، ما عذرت أحداً. قالوا: وما هي: قال: قوله تعالى: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله..) [التوبة: 41]. ومضى أبو أيوب يجاهد، حتى خرج مع الجيش لحصار القسطنطينية، فلما حضرته الوفاة قال للمسلمين: إذا أنا مت فاحملوني وادفنونني في أقرب مكان إلى العدو. فلما مات دفنه المسلمون قرب أسوار القسطنطينية. فما أعلى همة هذا الصحابي الذي أقام الحجة على كل المتخاذلين.

ورود المنايا ونيل المنى

ونفس الشريف لها غايتان

نماذج ومواقف أخرى

المفسر المشهور ابن جرير الطبري رحمه الله كان ذا همة عالية في طلب العلم والتأليف فيه، وقد قسم العلماء عدد الصفحات التي ألفها على عدد أيام حياته، فوجدوا أنه كان يؤلف يوماً نحو أربعين ورقة. اذكر ثلاثة نماذج أخرى لعلماء أو قادة أو مبدعين في شتى المجالات، مستعيناً بكتب التاريخ والتراجم.

المراجع

محبة الله تعالى ورسوله في الكتاب والسنة/ غسان أحمد عبد الرحمن. (رسالة ماجستير غير منشورة).
محبة الله عز وجل/ حسين آل الشيخ. خطبة جمعة في المسجد النبوي بتاريخ 8-7-1424 هـ .

مِنَّا وَمِنَ الْجَنَّةِ
لَا يُرَى فِيهَا شُمْسٌ وَلَا قَمَرٌ
وَأَنْبَاءُ الْمُرْسَلِينَ

